سعد الدين بن غراب

ودوره السياسي والاجتماعي
فى الدولة المملوكية
٧٨٠- ٨٠٨ هـ/ ١٣٧٨- ١٤٠٦م

إعداد

دكتور / مسعد سيد محمد كتبى

قسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك ربى حمد الشاكرين ، وأصلى و أسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين ، ... وبعد

فيحفل تاريخ مصر المملوكية بسيرلغير واحد من الرجال الذين قاموا فيهبدور كبير ، وأثروا في مجريات أحداثه ، وشاركوا في صنع قراراته ، ولم تكن نشأتهم هم وأسلافهم تنبئ عن شيء من هذا أوذاك ، ومن هؤلاء النفرصاحب شخصية هذا البحث الذى انفرد عن سابقيه ولاحقيه بخصائص قلما توافرت فى علم واحد ،فقد كان ثاني اثنين فى تاريخدولةالمماليك حتى عصر ابن تغري برديت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ م يتقلد أربعاً من كبريات الوظائف الديوانية وهى: نظري الخاص والجيش والوزارة ثم كتابة السر ، وهذه الوظائف تمثل عصب الجهاز الديواني للدولة المملوكية وتتصدر مراتبه ،ومما انفرد به أيضاً أنه كان من الذين نجحوا بذكائهم ومهارتهم وحنكتهم فى الجمع بين وظائف أرباب السيف والقلم ، بتقلده الأستادارية والإشارة ثم نيله الإمرة ، وقبل هذا وذاك كان له دور سياسي فريد تمثل فى نقضه لدولة الناصر فرج ابن برقوق ، وإقامته لدولة أخيه المنصور لحاجة في نفسه ، ثم إعادتهما نقض وإزالته ما أقام ، كل هذا وهو ما يزال في ميعة الصبا لم يكمل العقد الثالث من عمره، فكان هذاالبحث المعنون بـ "سعد الدين بن غراب ودوره السياسي والاجتماعي فى الدولة المملوكية٧٨٠ – ٨٠٨ هـ / ١٣٧٨ – ١٤٠٦م " .محاولة لكشف

النقاب عنه ، وإلقاء مزيدٍ من الأضواء عليه .

وقد جاء هذا الموضوع فىثلاثة مباحث مسبوقة بمقدمة ، ومشفوعة بخاتمة وثبت للمصادر ثم فهرست للموضوعات ، على النحو التالى :

المقدمة :بينت فيها أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، وخطة البحث.

وعقدالمبحث الأول للحديث عن" نشأة ابن غراب ووظائفه "حيث عرض لنشأته وتدرجه فى الأعمال الديوانية ، وعلاقته بسيده جمال الدين محمود وملابسات نكبة هذا الأخير على يديه، ثم علاقة ابن غراب بالظاهر برقوق ، وولايته لنظري المفرد والخاص ، ثم تدرجه فى سلم الوظائف فى سلطنة الناصر فرج بن برقوق ، وولايته لنظر الجيش والوزارة وكتابة السر، وتبوئه مناصب عسكرية كالأستادارية والإشارة وصولاً إلى الإمرة .

وخصص المبحث الثانى للحديث عن : " الدور السياسيلابن غراب فى الدولة المملوكية" ، حيث استهله الباحثبالإشارة إلىملابسات ظهور ابن غراب على المسرح السياسي للدولة المملوكية ، وسر علاقته الوطيدة بالأمير يشبك الشعباني ، تلك التي كانت محور كل تحركاته السياسية وصراعاته مع رجالات الدولة سلطاناً أم أمراء، و أهم المشاركات السياسية التي خاضها ودوافعها ، وخُتم بالحديث عن الواقعةالفريدةالتى اضطلع بها ابن غراب بإقصاء الناصر فرجعن السلطنة ثم إعادته مرة أخرى ، وذلك لتحقيق أهدافسياسية سعى إليها .

وتناول المبحث الثالث : " الدور الاجتماعي لابن غراب فى الدولة المملوكية"حيث عرضت فيه للجهد الاجتماعي المأثور الذى بذَّ فيه ابن غراب معاصريه من الأعيان والأمراء ، والذي تمثل في مواجهة آثار الوباء والمجاعة التي ضربت مصر فى سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م ، فقد بذل الرجل جل ماله لمواراة الموتى الثرى ، حتى صار يُضرب بموقفه المثل ، الأمر الذي انعكس جلياً في حكم الناس عليه ، فأشادوا به فى حياته ، وتبارى كثير من الأمراء والعامة فى الخروج لتشييع جثمانه.

وجاءت الخاتمة للتنويه بأهم النتائج المستقاة من دراسة هذا الموضوع ، وشملت قائمة للمصادر والمراجع وفهرس لمحتويات البحث.

وبعد فهذه محاولة للاجتهاد للكشف عن تاريخ ابن غراب ودوره السياسي والاجتماعي فى الدولة المملوكية ، فإن كنت أصبت فيها فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني مجتهدٌ ، وفى درب البحثِ ملتمسٌ ، وللحقيقة باغٍ ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث / مسعد سيد محمد كتبى

المبحث الأول

نشأة ابن غراب ووظائفه

صاحب شخصية هذا البحث هو إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب ، سعد الدين بن علم الدين بن شمس الدين ، كان جده غراب من نصارى الأسكندرية الذين أسلموا وباشروا العمل بالكتابة ، وترقى فى سلم الوظائف الديوانية[١] حتى تولى نظر [٢]الأسكندرية قبل سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م ، ثم اتهم بأنه كان ممن تواطأ مع القبارصة إبّان غزوهم[٣]للمدينة فى السنة

---

(١) وظائف أرباب القلم : عددها خمس وعشرون وظيفة أهمها : الوزارة ، وكتابة السر ، ونظر الخاص ، ونظر الجيش ... ، القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١ / ١٤١٨م): صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٤ / ٢٨ – ٣٥ ، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه / محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر ، ودار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

(٢) الناظر : هو من ينظر فى شؤون الأموال ويتفقد تصرفاتها ، وترفع إليه حساباتها لينظر فيه ويدققه ، فيمضى ما يمضي ويرد الباقي . محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٥٠ ، دار الفكر ، دمشق وبيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

(٣) من ابرز الهجمات الصليبية التي شنها ملوك قبرص على مصر تلك الحملة التي قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الأسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م ، حيث استولى عليها ، وقام بعمليات سلب ونهب لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، ولما شعر بقرب وصول القوات المملوكية من القاهرة أسرع =

المذكورة ، فقبض عليه واليها ابن عرام [١]وقتله تاركاً ابنه عبد الرزاق الذي حاز مثل وظيفة أبيه ومات فى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، مخلفاً ولدين صغيرين أكبرهما ماجد[٢]والأصغر إبراهيم الذي كان في الرابعة من

بالفرار، بعدما حمل معه الكثير من المنهوبات والأسرى ، وكانت هذه الغزوة دافعة للأشرف برسباى للاستيلاء على الجزيرة وضمها لدولة المماليك الثانية سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م . المقريزي (أحمد بن علي بن عبد = =القادر العبيدي ت ٨٤٥ هـ /١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكيى فى مصر والشام ص ١٣٨ – ١٤٠ ، ١٧١ – ١٧٩ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣ ، ١٩٩٤ م .

(١) ابن عرام : صلاح الدين خليل بن أحمد ، تنقل فى الولايات حتى تولى الإمرة فى القاهرة ، ثم نيابة الأسكندرية ، ولما سجن برقوق خصمه الأمير بركة فى الأسكندرية سنة ٧٨٣ / ١٣٨١أرسل إلي ابن عرام أمراً بقتله ، ثم تنصل برقوق مما فعل وألقى باللائمة عليه ، فقتله مماليك بركة ، وصار يضرب بخموله المثل .. ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) : إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ٢ / ٣٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٣ / ٣٥٢ – ٣٥٥ ، حققه د/ محمد محمد أمين وآخرون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤– ١٩٩٠م .

(٢) ماجدبن عبد الرزاق فخر الدين ، شقيق ابن غراب صاحب هذا البحث =

عمره حينئذ ، وهو الذى تشكل حياته ودوره السياسي والاجتماعي بنيان هذا البحث(١).

ولقد اقترنت نشأة إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب وشهرته فى الدولة المملوكية الثانية ٧٨٤ – ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٧ م برجل من كبار رجالات الوظائف الديوانية آنذاك ؛ ذلكم هو جمال الدين محمود(٢)الذى ترقى فى الوظائف حتى نال الأستادارية(١) ، فباشرها بحنكة

وهو الأكبر ، ولد كأخيه فى الأسكندرية ونشأ بها ، وتولى نظرها لما تولى أخوه نظر الخاص سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م ، ثم جاء به فى سلطنة الناصر فرج وجعله وزيراً ، وأضاف إليه نظر الخاص ، ولم يكن جديراً بهذه الوظائف فلم تحمد ولايته ، قبض عليه جمال الدين محمود الأستادار بعد موت أخيه إبراهيم وسجنه ثم قتله سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٩ م . ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٦ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

(١) المقريزي: درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ١ / ٩٢ ، تحقيق د / محمود الجليلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار ٤ / ٢٨٩ ، وضع حواشيه / خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ابن حجر : إنباء الغمر ٣ / ٣١٦ ، ٥ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ١ / ١٠٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ١ / ٦٥ .

(٢) جمال الدين محمود بن علي ، نشأ فقيراً وعمل لدى بعض الأمراء ، =

ودهاء ، كما صارت إليه مقاليد الدولة المالية ، وتحكم فى الأموال السلطانية للظاهر برقوق[٢]

فصلحت أحواله وتولى شد الدواوين بالقاهرة ، فظهرت منه نجابة ويقظة ، وترقى فى الوظائف حتى ولى الأستادارية للسلطان برقوق ، وأنعم عليه بإمرة مائة تقدمة ألف ، كما عينه مشيراً ، وجمع من الأموال الشيء الكثير ، وظل على وظيفته حتى نُكب ، وعاقبه السلطان برقوق وصادر من أمواله ملايين الدنانير والدراهم ، مات سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م . ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٦ / ٨٧ ، تحقيق / محمد عبد المعيد خان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند ، ط٢ ، ١٩٧٢م ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢ / ١٥٦ ، ١٦٠ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دار الكتب، مصر ، د ط ت .

(١) الأُستادار : مهام صاحبها الإشراف على بيوت السلطان كلها ، وله سلطات واسعة في طلب ما تحتاجه بيوت السلطان من النفقات ، والكساوي ، ويكون لأرباب الوظائف = = الكبرى أستادار مثل السلطان . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ٢١ ، دهمان : معجم الألفاظ ص١٥ .

(٢) برقوق بن أنص الظاهر أبو سعيد ، جلب من بلاد الجركس ، والتحق بخدمة يلبغا الكبير ، ونُفى عقب مقتله إلى الشام ، ثم عاد إلى مصر ، والتحق بخدمة الأشرف شعبان ، وبعد موته ارتقى برقوق في العديد من الوظائف ، حتى استقر على عرش السلطنة فى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م بعد أن نحى السلطان الصالح حاجي ، وقاتل برقوق من خرج عليه من الأمراء كمنطاش ويلبغا حتى قتلهما، وظل في السلطنة حتى توفى سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩م . ، السخاوي: الضوء اللامع ٣ /١١، ١٢ .

وكثرت أمواله[١]حتى تندر العامة على ذلك بقولهم :"ألان الله الحديد لداود والذهب لمحمود"[٢] ، وحينما باشر العمل فى الأسكندرية وقعت عيناه على إبراهم بن عبد الرزاق وهو طفل صغير دون العاشرة ، وكانيكتب تحت كنف أخيه الأكبر ماجد ، فاستلفت نظره فضمه إليه ، ولاحت لجمال الدين محمود بوادر النجابة من إبراهيم ، فقد كان غلاماً وسيماً تلوح في وجهه أمارات السعادة ، وعليه علامات القبول ظاهرة ، فقربه منه ولقبه بسعد الدين ، وحمله معه إلى القاهرة فى سنة ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨ م ، وهو مايزال صبياً فى العاشرة من عمره ، ودربه فى الكتابة حتى أتقن الحساب ، وحدب عليه حتى مهر بسرعة كبيرة وجادت كتابته ، وتعلم ابن غراب التركية حتى أجادها ، فراق ذلك لسيده فجعله كاتباً لخاص أمواله ، فتبارى ابن غراب فى القيام بمهام عمله ، وأحصى أموال أستاذه، وبرع فى مباشرة مهام عمله حتى تمكن من قلب جمال الدين الأستادار، وصار أعلم بشؤون أمواله منه [٣] .

---

(١)المقريزي : السلوك ٥/ ٣٧٥ ، درر العقود ١ / ٩٢ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٣ / ٣١٦ ، ٥ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ١ / ١٠٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ١ / ٦٥ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ١٥٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ٥/ ٣٧٥ ، درر العقود ١ / ٩٢ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٣ / ٣١٦ ، ٥ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ١ / ١٠٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ١ / ٦٥ .

لم يحفظ ابن غراب لجمال الدين حسن صنيعه معه ، فجار على بعض أمواله ، ولما شعر بتغير أستاذه وتنكره له خاف من سطوته ونزول العقوبة به ، فأسرع للغدر به قبل أن ينال منه ، وترامى بالولاء على ابن الطبلاوي (١) والي القاهرة (٢)، الذي كان منافساً لجمال الدين محمود فى المكانة عند الظاهر برقوق، فاغتنم ابن الطبلاوي هذه الفرصة ، ومكن لابن غراب في الوصول إلى بلاط السلطان، فشرع سعد الدين فى إغرائه للإيقاع بسيده ونكبته ؛ لكثرة ثرواته وأمواله – وهو بها أعلم – ، وأوغر صدره عليه ، حتى أمر برقوق بالقبض على جمال الدين وآل بيته ، ومصادرة ثرواتهم وذلك فى رجب سنة ٧٩٧ هـ / أبريل ١٣٩٥ م ، وكان ابن غراب هو القائم على كشف خبايا أستاذه ومحاققته ، فأماط اللثام عن

---

(١) ابن الطبلاوي : علي بن عبدالله بن محمد ، من طبلاوة إحدى القرى بالوجه البحري ، كان عمه تاجراً قد مات فورثه ، وسعى إلى الوظائف حتى تولى شد الدواوين ثم ولاية القاهرة ، وبعد عودة الظاهر برقوق للسلطنة عظم أمر ابن الطبلاوى واستعان بآل بيته فى الوظائف ، كما ترقى فى الوظائف حتى تولى الحجوبية ، ونال الأستادارية بعد نكبة لجمال الدين محمود ، ثم نُكب على يدي ابن غراب ونفاه برقوق إلى بلاد الشام ، ثم قبض عليه الناصر فرج وقتله سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م . ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ١٩٧ – ٣٠٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ٥ / ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) والي القاهرة : هو أحد ولاة الشرطة المعروفين في الديار المصرية ، يحكم في القاهرة وضواحيها ، ورتبته عادة إمرة طبلخاناة ، وهو أكبر الولاة الثلاثة ، وأعلاهم مكانة ، ويليه والي الفسطاط ، ثم والي القرافة . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ٢٣ .

ثرواته ، وأفحش فى القول لجمال الدين ، حتى صار هذا الأخير كلما رآه وهو يحاققه يبكي من شدة القهر ؛ لوقوع مثل هذا الأمر ممن رباه على عينيه وتعهده ، وعنى به وتوسم فيه خيراً، وكان لبراعة ابن غراب فى المحاققة أثر كبير فى ازدياد غضب السلطان على الأستادار المنكوب ، فأمر بعقوبته حتى الموت، كما شرع السلطان بعناية ابن غراب ودلالته فى تتبع ما بقى من ثروات لجمال الدين حتى نال منها ما يزيد على مليون وأربعمائة ألف دينار ومليون درهم ، وظل الرجل قيد الحبس حتى مات خنقاً بأمر السلطان فى رجب سنة ٧٩٩ هـ/ مارس ١٣٩٧ م ، بينما تنعم ابن غراب بما أخفاه من ماله وكان مقداراً كبيراً ، فظهرت عليه علامات الثراء ، وكانت هذه الواقعة هى بداية ظهور ابن غراب على مسرح الأحداث فى الدولة المملوكية ، وأولى غدراته بكبار المباشرين فيها[١] .

أصبح ابن غراب وجيهاً ومقرباً من السلطان برقوق ، الذى أراد أن يكافئه على حسن صنيعه فى الإيقاع بجمال الدين محمود ، وعلى كثرة الثروات التي جناها من وراء ذلك ، فعينه ناظراً لديوان المفرد [٢] فى صفر

---

(١) المقريزي : السلوك ٥ / ٣٧٥ ، ٣٩٤ ، درر العقود ١ / ٩٢ ، ٩٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٣ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٥ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ١ / ١٠٥ .

(٢) ديوان المفرد : أحدثه السلطان برقوق فى سلطنته ، وأفرد له بلاداً ، وأقام له مباشرين وجعل الإشراف عليه لأستاداره الكبير ، وكان الديوان مختصاً بنفقة مماليكه ورواتبهم وعليق دوابهم وكسوتهم . القلقشندي : صبح الأعشى ٣ / ٥٢٤ .

سنة ٧٩٨ هـ/نوفمبر ١٣٩٥م ، قبيل مقتل جمال الدين فى محبسه ، وهى أول وظيفة ديوانية يتولاها ابن غراب الذي لم ينس دور ابن الطبلاوي فيما وصل إليه ، فلازمهوتحول إلى السكنى بجواره ، وملأ عينيه بكثرة الأموال التي حازها بعد نكبة سيده ، لذلك سعى ابن الطبلاوي لابن غراب فى نيل نظر الخاص [١]، فولاه السلطان إياه فى ذى القعدة سنة ٧٩٨ هـ/أغسطس ١٣٩٦م ، عوضاً عن ابن كاتب السعدي[٢]الذي أمر السلطان بالقبض عليه ومعاقبته لاستصفاء أموالهعلى يدي غريمه [٣].

---

(١) ديوان الخاص: وظيفة هذا الديوان هى النظر فى خاصة أموال السلطان والتحدث فى الجهات والبلدان التي يحصل منها ، ويحمل جميعه إلى خزانة الخاص . محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٨٣م .

(٢) ابن كاتب السعدي : سعد الدين أبى الفرج بن تاج الدين موسى ، كان والده من أعيان القبط وتولى نظر الخاص ، وحاز ابنه مثل ظيفة أبيه في سلطنة الظاهر برقوق ، ثم عزل عنها وتولاها ابن غراب الذي عاقبه بين يديه بأمر من السلطان ، ثم عفى عنه وصار يتردد إلى مجلسه بعد ذلك ، ومات في دمشق محروقاً عندما اجتاحها تيمور لنك سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م . المقريزي : المواعظ ٣ / ٧٨ ، ٧٩ ، ابن تغري بردي : النجوم ١١ / ٣٠٤ ، ١٢ / ٨ .

(٣) المقريزي : السلوك ٥ / ٣٨٢ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٣ / ٢٩٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٦٣ ، ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفي ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور الجزء الأول القسم الثانى ص ٤٨٣ ، حققه وكتب له المقدمة والفهارس د/ محمد =

لم يقف طموح ابن غراب عند حدود ولايته لديوان المفرد ونظر الخاص ، بل كان يتوق لما هو أعظم من ذلك بكثير ، بيد أن طموحاته هذه كان يقف فى وجهها ابن الطبلاوي الذي خلت له الساحة عند السلطان برقوق ، بعد الإجهاز على منافسه جمال الدين محمود ، فقد عظم أمره وصار يشار إليه بالبنان ، ويعول عليه فيما جل من الأمور ، كما ترقى فى الوظائف حتى نال الأستادارية خلفاًلغريمه ، فتفتق ذهن ابن غراب فى الاستعانة ببلبغا(١) المجنون الذي كان يجتهد لمنافسة ابن الطبلاوي فى المكانة عند السلطان ، وشرع ابن غراب بمعاونة يلبغا فى إغراء برقوق للإيقاع بابن الطبلاوي، كما فعل سلفاً مع أستاذه جمال الدين ونجحفى مسعاه، حيث أمر السلطانبعزل ابن الطبلاوي فى جمادى الآخرة سنة ٨٠٠ هـ / فبراير ١٣٩٨م منتظر الأسكندرية واستقر بابن غراب مكانه (٢) .

مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(١) يلبغا المؤيدي شيخ يعرف بالمجنون ، لطيشه وحدة مزاجه ، كان أحد أمراء دمشق وبها مات سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م . السخاوي : الضوء اللامع ١٠ / ٢٩٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ٥ / ٤١٢ ، ٤١٣ ، درر العقود ١ / ٢٨٩ ٩٣ ، ابن حجر : = =إنباء الغمر جـ ٣ / ٢٧٨ - ٣٨٠ ، جـ ٤ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، جـ ٥ / ٣٠٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ٥ / ٢٥٢ ، ابن شاهين الملطي (عبد الباسط بن خليل ت٩٢٠هـ / ١٥١٤م) : نيل الأمل في ذيل =

ما كان ابن غرابليرضى بمثل هذه الوظيفة التي تبعده عن العاصمة المملوكية ، حيث القدرة على التأثير فى صنع القرارات فى الدولة ، فاستناب فيها أخاه ماجد ، وظل مرابضاً لخصمه فى القاهرة، وزاد من وتيرة إغراء السلطان للإيقاع به ومصادرة ثرواته ، ليتخلص من منافسته وتخلو له الساحة، ونجح ابن غراب فى نيل مبتغاه، حيث أذن له برقوق فى القبض على ابن الطبلاوي وآل بيته وحواشيهم ومصادرتهم ، ومنحه كافة الصلاحيات للقيام بالأمر ، ففكر ابن غراب ودبر لآل الطبلاوي مكيده فى بيته استدرجهم إليها بدعوى حضور عقيقة أحد أولاده ، ثم أوقع بهم جميعاً فى لحظة واحدة فى شعبان سنة ٨٠٠ هـ / أبريل ١٣٩٨ م ، وتحفظ على جميع دورهم وتتبع حواشيهم ، وتولى بنفسه معاقبه غريمه حتى استخرج منه أموالاً جمة ، ثم سلمه لحليفه الجديد يلبغا المجنون ، الذي واصل عقابه حتى انتزع منه ما تبقى من ثرواته ، وحل بابن الطبلاوي مثلما حل على يديه بجمال الدين محمود ، ثم نفاه السلطان إلى بلاد الشام ؛ لتخلو الساحة لابن غراب(١).

الدول ٢ / ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .

(١) المقريزي : السلوك ٥ / ٤١٢ ، ٤١٣ ، درر العقود ١ / ٩٣ ،ابن حجر : إنباء الغمر ٣ / ٢٧٨ – ٣٨٠ ، ٤ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٥ / ٣٠٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ٥ / ٢٥٢ .

مما سبق ذكره يتبين للدارس أن ابن غراب كان يتصف بصفات المكر والدهاء[١]" ولا يحب أن يشاركه فى الرئاسة أحد ، ولا يرضى بمن يناوئه بدون الهلاك "[٢]، ذلك الذي تجلى فى نجاحه فى الإطاحة برجلين من كبار المباشرين فى عصره ، ممن حازا وظيفة الأستادارية ، وهما : جمال الدين محمود ، ثم ابن الطبلاوي ، وكان سر نجاح ابن غراب فى نيل مبتغاه هو إغراؤهللسلطان بعظم ثروات الرجلين ، توطئة للإيقاع بهما ومصادرة أملاكهما ، وليكون ذلك سبيلاً إلى نيل مآربه فى التقرب من الظاهر برقوق، والتطلع إلى الترقى فى سلم الوظائف .

كافأ السلطان برقوق ابن غراب على حسن صنيعه فى الإيقاع بابن الطبلاوي ، ومن قبله جمال الدين محمود ومصادرة ثرواتهما لصالحه ، فعيَّن برقوق ابن غراب ناظراً للجيش[٣] فى ذى القعدة سنة ٨٠٠ هـ/يولية

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣١٠ ، ابن الصيرفي (علي بن داود الجوهري ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ٢ / ٢٠٥ ، تحقيق وتعليق د/ حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧١م ، السخاوي : وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام ١ / ٣٨٧ ، تحقيق د/ بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٨.

(٣) ناظر الجيش : هو الذي يشرف على أمور الجيش السلطاني ، والإقطاعات العسكرية بمصر والشام والكشف عنها ، ومشاورة السلطان فيها ، وأخذ تواقيعه على مراسيمها ، ولناظر الجيش أتباع وأعوان يوليهم السلطان ، =

١٣٩٨م ، بعد عزله لمحمد[١] بن الدماميني منها ، وأظهر ابن غراب بعد ولايته لنظر الجيش عفة عن تناول الرسوم والأموال التي كان ينالها سابقوه ، كما بدت عليه علامات الزهو والإعجاب بنفسه ، وتحلى بمظاهر الرئاسة ، كل ذلك وهو مايزال فى مطلع شبابه [٢] .

ظل ابن غراب محظياً به من جانب الظاهر برقوق ، الذى أوصى فى مرض موته بجعله أحد الأوصياء[٣]على ولده فرج[١] حتى يبلغ أشده ، ولما

كصاحب ديوان الجيش وكتابة وشهوده ، وصاحب ديوان المماليك . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ٣١ ، دهمان : معجم الألفاظ ص١٥٠ .

(١) ابن الدماميني : محمد بن محمد بن أبي بكر ، نشأ فى الأسكندرية حيث كان أبوه ناظراً لها ، وعمل ابن الدماميني كأبيه فى الوظائف الديوانية بالأسكندرية ، ثم رحل إلى القاهرة واشتغل بالعلم ، وعمل عند جمال الدين محمود الأستادار هو وابن غراب ، وترقى فى الوظائف حتى ولى نظر الجيش ونظر الخاص وغيرها من الوظائف ، وكان يعادي ابن غراب منذ أن خدما معا عند سيدهما ، نال منه ابن غراب وأخرجه من القاهرة إلى قضاء الأسكندرية سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م ، وفيها مات . ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ٣١ ، ٣٣٢ ، ابن قاضى شهبة (تقي الدين أبو بكر أحمد ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م) : تاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، تحقيق / عدنان درويش ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، د ط ، ١٩٩٤ – ١٩٩٧م ، السخاوي : الضوء اللامع ٩ / ٦٣ ، ٦٤.

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٣ ، السلوك ٥/ ٤١٦، ابن حجر : إنباء الغمر ٣ /٣٨٣ .

(٣) الأوصياء هم : الأمير الكبير أَيْتَمُشْالبجاسي مدبراً للملكة ووصياً على تركة =

تسلطن هذا الأخير تصاعد نفوذ ابن غراب، فاستقدم أخاه ماجد من نظر الأسكندرية ، واستقر به وزيراً[٢]فى ذي الحجة سنة ٨٠١ هـ/أغسطس ١٣٩٩م ، وصار ابن غراب صاحب الحل والعقد فى الدولة ؛ لاستحواذه

برقوق ، الأمير تغري بردي أمير سلاح ، الأمير بيبرس الدوادار ابن أخت السلطان ، الأمير يشبك الخازندار ، فتح الله كاتب السر ، الأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوي ، الأمير قطلوبغا الكركي مربي فرج ، الأمير يلبغا السالمي ، الخليفة المتوكل على الله محمد وهو ناظر على الجميع . المقريزي : السلوك ٥ / ٤٤٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ١٠٤ ، ابن الصيرفي : نزهة النفوس ٢ / ١٩ ، ٢٠ .

(١) فرج بن برقوق بن أنص ، ولد سنة ٧٩١ هـ /١٣٨٩م ، واستقر في السلطنة بعهد من أبيه في شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية ١٣٩٩م وهو دون عشر سنين ، اختلف مماليك أبيه عليه كثيراً ، ونزل الشام مراراً لقتال أمرائها ، حتى قتل على يد نوروز وشيخ في سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢م . ابن تغري بردي : النجوم ١٣ / ١٥١ ، ابن الصيرفي : نزهة النفوس ٢ / ٣٢٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ٦ / ١٦٨ .

(٢) الوزارة : من أجل الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة ، لو لم تخرج عن موضوعها، ويعدل بها عن قاعدتها ، وصاحبها ثاني رجل في الدولة بعد السلطان لو أنصف وعرف حقه ، ولكنها تأخرت عن مكانتها تلك بعد استحداث منصب نيابة السلطنة ، حتى صار الوزير كناظر المال لا يتحدث في غيره ، ولا يُمنح أي سلطات لا في ولاية ولا عزل ، وألغاها الناصر محمد بن قلاوون ، وعادت بعد وفاته ، وظلت تالية لنيابة السلطنة . القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٨ ، ٢٩ .

هو وأخيه على ثلاث من كبريات الوظائف الديوانية فى الدولةوهى نظري الخاص والجيش والوزارة [١].

لم تدم سعادة ابن غراب طويلاً ، بالرغم من مشاركته فى ترشيد[٢]الناصر فرجفى ربيع الأول سنة ٨٠٢ هـ /أكتوبر١٣٩٩ م ، حيث أزعج هذا الأمر غير واحد من الأمراء الذين فقدوا مكانتهم ، فقلبوا لابن غراب ظهر المجن ، ووشوا به عند السلطان الشاب ، فتنكر له فى ربيع الآخر من العام نفسه ٨٠٢ هـ / نوفمبر ١٣٩٩ م ، وأمر بالقبض عليه هو وأخوه ماجد وثلة من أشياعهما[٣] ، وفرض الحوطة[٤] على ثرواتهم ، وتولى ابن الدماميني نظر الخاص والجيش خلفاً لسعد الدين ، وتولى بدر[٥] الدين الطوخي الوزارة خلفاً لأخيه ماجد ، ونُقل ابنا غراب إلى بيت

---

(١)المقريزي : السلوك ٥ / ٤٢٢ ، ٤٥٨ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ٢٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ١٠٤ .

(٢)سيتناول الباحث هذا الأمر بالتفصيل فى المبحث الثاني .

(٣) وهم : الأمير قطلوبك العلائي الأستادار صهر ابن غراب والد زوجه ، ابن قطينة أستادار الكارم ، الشريف علاء الدين البغدادي شاد الدواوين . ابن قاضي شهبه : تاريخه ٤ / ٧٨

(٤) الحوطة : إحصاء الأموال لدفع الضرائب عنها . دهمان : معجم الألفاظ ص ٦٥ .

(٥) بدر الدين بن محمد بن محمد الطوخى ، ولد سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م ، وعمل بالكتابة فى الديوان حتى مهر فيها ، وتنقل فى الوظائف الديوانية حتى تولى الوزارة فى بلاد الشام ، ثم نظر الدولة فى مصر ، ثم الوزارة فى =

الأمير قطلوبغا [١]الكركي للتحفظ عليهما حتى يبت السلطان فى شأنهما[٢].

دفعت المكانة العاليةالتي كان يتمتع بها ابنا غراب فى السلطنةالكثير من الناس للتوافد عليهما فى مقرهما والاهتمام بهما ، وأعرضوا عن ابن الطوخى الوزير وابن الدماميني ناظر الجيش والخاص ،اللذان توقف حالهما وفقدا صلاحياتهما فى الدولة ، مما دفع السلطان إلى الإفراج عن ابني غراب ، وإعادتهما إلى وظائفهما ، ولم يكتف الناصر فرج بذلكبل سلم ابن غراب غريميه : ابن الطوخي وابن الدماميني لينال منهما، بيد أن

سلطنة الظاهر برقوق بعد القبض على ابن البقري ، فباشرها بشهامة ومهابة، وعزل منها وعاد إليها غير مرة ، ووقعت له محن وخطوب ، وعزل من مناصبه ، مات سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م . ابن حجر : ذيل الدرر الكامنة ص ١٦٥، تحقيق د / عدنان درويش ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م ، ابن تغري بردي : النجوم ١٣/ ٣٨، السخـــاوي: الضوء اللامع ١٠ / ٣٦ .

(١) قطلوبغا الكركي ،أحد مماليك الظاهر برقوق ، لُقب بذلك لأنه كان مع برقوق لما عزل من السلطنة وحبس بالكرك ، وبعد عود الناصر للسلطنة جعله خاصكياً وأدناه حتى صار أمير عشرة ، وفى عهد السلطان فرج صار أمير مائة مقدم ألف ، ثم قبض عليه جكم العوضي وسجنه مع يشبك فى الأسكندرية ، وأطلق سراحه بعد سنة وعاد إلى التقدمة ، توفى سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م . السخاوي : الضوء اللامع ٦ / ٢٢٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ٥ / ٤٥٨ ، ٦ / ١٥ ، ١٦ ، المواعظ ٤ /٢٨٩ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ١١٢ ، ابن تغري بردي : المنهـل الصافي ١ / ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ٧٨ ، ١٧٩ .

سعد الدين عف عن التعرض لهما وأطلق سراحهما ، وسعى ماكراً لدى السلطان ليتولى الأخير منهما قضاء الأسكندرية ، ونزل ابن غراب بنفسه إلى دار ابن الدماميني مهنئاً له فى الظاهر ، وشامتاً فى الباطن ، حيث نال منه وتخلص من منازعته إياه ، بإخراجه من القاهرة إلى الأسكندرية ، ولو على وظيفة قاضي قضاتها ، إذ هى دون نظر الجيش أو الخاص ، [١]**وهذا ما حدابالمقريزي** [٢]**إلى وصف ابن غراب بأنه كان : " لايحب أن يشاركه فى الرئاسة أحد " .**

استرد ابن غراب مكانته الديوانية فى الدولة المملوكية بعد استعادته لوظيفتي نظر الجيش والخاص ، بيد أنه سرعان ما ظهر له منافس جديد تمثل فى الأمير يلبغا[٣] **السالمي الأستادار، الذي لم يستطع**

---

(١) المقريزي : السلوك ٥ / ٤٥٨ ، ٦ / ١٥ ، ١٦ ، درر العقود ١ / ٩٤ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ١١٢ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) درر العقود ١ / ٩٨

(٣) يلبغا السالمي ،أحد مماليك الظاهر برقوق وخاصته ، ترقى فى الوظائف حتى جعلهبرقوق أحد الأوصياء على ولده فرج ، وتولى الأستادارية والإشارة وغيرهما من الوظائف ، عُزل من الأستادارية بابن غراب سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م وعُوقب ونفى إلى دمياط ، ثم عاد وتولى الوزارة والإشارة ، وساءت سيرته فيها فُعزل وحُبس ، ثم أطلق السلطان فرج سراحه وصار مشيراً ، ووقعت العداوة بين وبين جمال الدين يوسف البيري الأستادار ، فتسلمه وعاقبه ونفاه إلى الأسكندرية ، فحُبس بها حتى قُتل في سنة ٨١١ هـ / =

ابن غراب مجاهرته بالعداء ، فصانعه ظاهراً ليكف خطره عنه ، ودبر له بليل لينال منه ، واستعان فى سبيل تحقيقه ذلك بحليفه الأمير يشبك[١]الشعباني الذي كان صاحب أيادٍ بيضاء علي ابن غراب منذ ظهوره ،ودفعه لسدة المناصب الديوانية ، فأغرى ابن غراب يشبكللإيقاع بيلبغا السالمي ، فاستجاب له وقبض عليه وأذاقه من العذاب ألوانا ، ثم سلمه هو والوزير ابن قطينة[٢] لابن غراب ليحاسبهما على أموال الجبايات

١٤٠٨ م . السخاوي : الضوء اللامع ١٠ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(١) يشبك الشعباني ،أحد مماليك الظاهر برقوق ، ترقى فى عهده فصار أمير مائة مقدم ألف ، ثم صارت له المكانة العالية عند ولده فرج ، إذ كان ممن تعهده منذ نعومة أظفاره ورباه ، و كان له دور كبير فى ترشيده واستقلاله بالسلطنة سنة ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م، الأمر الذى كان مدعاةً لتدلل يشبك على السلطان حينما يغضب عليه ، إذ سرعان ما يعفو عنه ، فيستعيد مكانته فى الدولة ، وتولى يشبك الأتابكية بعد ترشيد الناصر وأصبح مدبراً للسلطنة ، و دخل فى صراعات عسكرية ضد بعض منافسيه من الأمراء شاركه فيها ابن غراب ، كما كان ليشبك دور كبير فى إعادة الناصر فرج إلى السلطنة سنة ٨٠٨ هـ /١٤٠٦ م ، مما جعل السلطان يعيده إلى وظائفه وينصبه أتابكاً ، بيد أن الحوادث والصراعات دارت بين يشبك والسلطان غير مرة حتى قبض الناصر فرج عليه وسجنه ، فهرب ثم قُتل في بلاد الشام سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢ / ٢٩٩ ، ١٣ / ٤٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ١٠ / ٢٧٨، ٢٧٩ .

(٢) ابن قطينة : أحمد بن عمر شهاب الدين ، كان أبوه من العوام ، ونشأ ابنه فى خدمة الأمراء ، وتنقل فى الوظائف حتى باشر أستادارية بعض الأمراء ، =

والمصادرات المأخوذة من الناس إبَّان فترة عملهما ، وولى السلطان ابن غراب الأستادارية مكانه فى رجب سنة ٨٠٣ هـ /فبراير ١٤٠١م ، مضافاً لما معـــه من نظــري الجيش والخاص [١].

تعد ولاية ابن غراب للأستادارية وهى من وظائف أرباب السيف[٢]بداية لمرحلة مهمة فى حياته، حيث صار متقلداً لوظائف ديوانية وعسكرية، وهو الأمر الذي كان يترتب عليه تغيير فى هيئته وألقابه ، فمن حيث الهيئة كان عليه أن يتزيابملابس الأمراء ، بيد أنهاشترط عند ولايته للأستاداريه ألا يغير ملبسه ، فظل يباشرعمله وهو بهيئة الكتاب ، ومن

وتولى نظر تجارة الكارم فى أيام برقوق ، وامتحن كثيراً وتنقل فى الولايات ، وخدم عند جمال الدين يوسف البيري ووالده ، نال الوزارة سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م ، واستعفى منها بعد أسبوع ، وتولى عدة وظائف بعدها ، وتوفى سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦م. السخاوي : الضوء اللامع ٢ / ٥٥ .

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ٥٧ ، درر العقود ٩٤/١، ابن حجر : إنباء الغمر ٤/ ٢٢٩ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ١٨١ ، ابن تغري بردي : النجوم ٢٥١،٢٥٢/١٢ .

(٢) وظائف أرباب السيف أو الوظائف العسكرية : تنقسم إلى قسمين : الأول مَنْ أصحابها بحاضرة السلطان وعددها خمس وعشرون وظيفة أعلاها النيابة، والأتابكيـــة ، ورأس النوبة ، والدوادارية ، والحجوبية، والأستادرية ، ونقابة الجيوش ، والقسم الثاني : مَن هم خارج عن الحضرة السلطانية كنواب السلطنة في الإسكندرية ، والوجه القبلي ، والبحري، والولاة . القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٤ – ٢٨ .

حيث الألقاب صار يخاطب بالأمير بدلاً من الصاحب أو القاضي ، وأصبح له ديوان كنظرائه من الأمراء ، فكان ابن غراب حينئذ فى هيئته وكلامه مزيجاً من الكتاب والأمراء ، فهيئته وثيابه كالمباشرين ، وكلامه بلسان الترك ، وبعض عمله الذي يتقلده وهو نظري الجيش والخاص من الوظائف الديوانية ، التى يخاطب أصحابها بلقب القاضي أو الصاحب ، وبعض عمله وهو الأستادارية من وظائف أرباب السيف التى يلقب أصحابها بالأمراء ، ولو أعطى ابن غراب من الألقاب حقها لحق أن يقال له : "القضاميري " لأنه قاضي وأمير كما قال المقريزي [١].

وكيفما كان الأمر فى ألقاب ابن غراب وهيئته فإن الرجل بعد ولايته للأستادارية سار سيرة نظرائه الأمراء ، من حيث كثرة العطاء لمن حوله ، وزيادة الأسمطة [٢]التي تمد للوافدين عليه ، والتوسع فى الأخذ بمظاهر الإمرة ، والزيادة فى اقتناء المماليك والخيول ، والاستكثار من الحواشي والأتباع ، حتى صار يشار إليه بالبنان ، إذ لم يكن يضاهيه أحد من نظرائه المباشرين فى شىء مما ذكر [٣].

---

(١) درر العقود ١ / ٩٤ ، المواعظ ٤ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) السماط : معناه المائدة السلطانية ، وكانت العادة أن يمد بالقصر في طرفي النهار من كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء ، فيأكلون منها ، ويشاركهم السلطان أحياناً ، ويؤكل مما عليها ، ويفرق ما يزيد ، ثم يشرب الأمراء بعدها المشروبات . البقلي : التعريف ص ١٨٥

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

ظل ابن غراب على وظائفه الثلاث حتى شوال سنة ٨٠٣ هـ / مايو ١٤٠١م ، حيث دارت الدائرة على حليفه الأمير يشبك بعد صراعه [١] مع الأميرين جكم [٢]العوضيوسودون [٣]طاز، وحُبسفي الأسكندرية، مما اضطر ابن غراب إلى الاختفاء والتوجه سراً إلى تروجة[٤] ، فعزله السلطان من

---

(١) سيتناول الباحث بالتفصيل أسباب هذا الصراع فى المبحث الثاني .

(٢) جكم العوضي ،أحد مماليك الظاهر برقوق ، ترقى فى الوظائف حتى صار أمير طبلخاناة ثم رأس نوبة ، وفى سلطنة الناصر فرج دار الصراع بينه وبين الأمير يشبك الذي تولى الدوادارية مكانه ، ثم غضب عليه السلطان فرج فنفاه إلى بلاد الشام وحُبس بها ، ثم أطلق سراحه واستولى على حلب وأعلن العصيان ، فخرج الناصر لقتاله هو ومن معه ، فانتصر جكم واستولى على دمشق وحماة سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، وأعلن نفسه سلطاناً ، وخرج لقتال قرايلوك التركماني فقُتل سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م . السخاوي : الضوء ٣ / ٧٦ .

(٣) سودون طاز ،أحد مماليك الظاهر برقوق وخواصه ، ترقى فى الوظائف حتى صار أمير أخور فى سلطنة الناصر فرج ، وعظم شأنه حتى وقعت بينه وبين الأمير يشبك منافرة فاستعفى من الأخورية ، ثم خرج بمماليكه نحو سرياقوس محاولاً النيل من يشبك فلم يستطع ، وخرج إليه السلطان وقاتله حتى ترامى سودون على يشبك فتوسط له عند الناصر حتى عفا عنه على أن يذهب إلى دمياط بطالاً – من دون وظيفة – ، ثم خرج منها على السلطان وذهب إلى الشرقية ، فُقبض عليه وحُبس فى الأسكندرية ، ثم قتل بها سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م . السخاوي : الضوء ٣ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٤) تروجة : قرية قديمة مندثرة من قرى البحيرة من أعمال الأسكندرية ، مكانها اليوم كوم تروجة بأراضي ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بمديرية البحيرة . ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت٦٢٦هـ / =

مناصبه ، وقام ابن غراب بمحاولة فاشلة لإطلاق سراح الأمير يشبك من محبسه ، ثم عاد سراً إلى القاهرة ، واستخفى عند صديقه جمال الدين يوسف(١) البيري ، الذي توسط له عند أستاذه سودون طاز ، حتى أصلح ما بينه وبين الأمراء المناوئين له ، ومكنه من حضور مجلس السلطان فعفا عنه ، وخلع(٢) عليه وأعاده إلى وظائفه الثلاث، نظرى الجيش

١٢٢٨م) : معجم البلدان ، ٢ / ٢٧، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة١٩٤٥م ، القسم الأول ص ١٩٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، ١٩٩٤م .

(١) جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد البيري الحلبي ، ولد سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م ، وقدم مصر وتولى وظائف لغير واحد من الأمراء ، ثم ولاه السلطان فرج الأستادارية وأضاف إليه الوزارة ونظر الخاص وكشف الوجه البحري ، ثم استقر به مشيراً واستبد بالأمور حتى صار هو المسيطر على السلطنة ، وليس للناصر فرج بن برقوق سوى الاسم ، قبض عليه السلطان سنة ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م و قتله . ابن حجر : إنباء الغمر ٦ / ١٩٨ – ٢٠٢ ، ، ذيل الدرر الكامنة ص ٢٠٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ١٧٥ .

(٢) الخلعة : هى ما يخلعه السلطان من الثياب الفاخرة على أكابر الدولة والأمراء والمقربين إليه ممن أدوا إلى الدولة خدمات متميزة ، وهى في الأغلب لباس مؤلف من جبة مطرزة وعمامة وطيلسان وسيف ، وكان لها أهمية خاصة في العصر المملوكي ، لأنها تعني تعيين المخلوع عليه في منصبه وتثبيته فيه ، وكانت تُهدي للأمراء وغيرهم في المناسبات المختلفة ، وتكون تعبيراً عن رضا السلطان وثقته لمن تمنح له . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ١٨٩ ، ١٩٠ ، مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص =

والخاص والأستادارية فى ذى الحجة سنة ٨٠٣هـ /يولية ١٤٠١م ، فاسترد ابن غراب مكانته وهيبته فى الدولة ، وصار أوفر حظاً من ذى قبل، وزادت سلطاتـه [١].

مما سبق عرضه يتبين للباحث أن ابن غراب نجح بدهائه وحنكته فى تجاوز هذه الأزمة التى كادت أن تعصف به من كل مناصبه ، تلك التي ظل محتفظاً بها حتى صفر سنة ٨٠٤ هـ/ سبتمبر ١٤٠١ م ، حيث تنازل لأخيه ماجد عن نظر الخاص ، بعدما اشترط عليه ألا يقضي شيئاً من مهام عمله إلا بعد مراجعته له ، واحتفظ الرجل بمنصبيه نظر الجيش والأستادارية ، حتى وقعت بينه وبين الأمير سودون[٢] الحمزاوي –

---

١٦٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ٦٤ – ٦٧ ، درر العقود ١ / ٩٤ ، ابن حجر : إنباء الغمر= = ٤ / ٢٤٠ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ١٩٢ ، ١٩٤ ، ابن تغري بردي : المنهل ١ / ١٠٧ – ١٠٩ .

(٢) سودون الحمزاوي الدوادار ، كان مقرباً من سلطانه برقوق ، ثم غضب عليه ونفاه إلى بلاد الشام ، وفى عهد الناصر فرج عاد إلى القاهرة ، وصار من جملة الأمراء ، وتولى حكم نيابة صفد ، ثم عُزل عنها وعاد إلى القاهرة على تقدمة ، وصار خازنداراً ثم رأس نوبة ، وظل عليها حتى اختفى الناصر سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، ولما خرج الناصر من بيته واستعاد السلطنة جعله دواداراً كبيراً ، ثم خرج على الناصر سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م فى بلاد الشام فقبض عليه ثم قتله سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م . ابن تغري بردي: المنهل ٦ / ١٢٣ – ١٢٦ .

صهر الناصر فرج بن برقوق على أخته زينب – ملاسنة فى مجلس السلطان ، وأغلظ كلاهما للآخر فى القول ، مما أغضب السلطان ، فأمر بالقبض عليه هو وأخيه ماجد فى رمضان سنة ٨٠٥ هـ /مارس ١٤٠٣م، وعزلهما من منصبيهما ، وتولى نظر الجيش أبو بكر بن محمد الدماميني، والأستادارية الأمير عمر(١) بن قايماز الذى تسلم ابني غراب لمعاقبتهما، فضرب ماجد ضرباً مبرحاً حتى افتدى نفسه من القتل بثلاثمائة ألف درهم ، كما أهان ابن غراب حتى افتدى نفسه بمليون درهم، ثم سلمهما ابن قايماز إلى يلبغا السالمي ليوقع بهما وينال وتره منهما ، بيد أنه لم يفعل ولم ينتقم لنفسه مما حدث له آنفا ، إذ خاف من سوء العاقبة لو عفى السلطان عنهما ، فأكرمهما يلبغا السالمي ، وسعى فى أمرهما حتى أطلق الناصرسراحهما بشفاعة الأمير يشبك فى ذى القعدة سنة ٨٠٥ هـ / مايو ١٤٠٣ م ، ومكث ابنا غراب فى بيتيهما بطالين (٢) من دون وظائف (٣).

---

(١) عمر بن قايماز سيف الدين ، ولد بالقاهرة ، وخدم عند مجموعة من أعيان الأمراء ، وتولى وظائف عديدة فى الدولة كالأستادارية ،ولم يرزق السعادة فيها، مات سنة ٨٠٩هـ = =/ ١٤٠٦ م . السخاوي : الضوء ٦ / ١١٤ .

(٢) البطال: هو العاطل من الأجناد أو الأمراء أو الموظفين عن أعمال الدولة ووظائفهم وإقطاعاتهم ، نتيجة غضب السلطان ، أو كبر السن ، أو اضطراراً إلى الاعتكاف ، أو الاختفاء ، أو لمجرد الابتعاد والانزواء ، أو للعزل من وظيفتهم . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ص ٣٥ .

(٣) المقريزي : السلوك ٦ / ٧٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠١، ابن قاضى شهبة =

لم تدم فترة خمول ابن غراب طويلاً، حيث رضى عنه السلطان فرج بعد بضعة أشهر ، وأعاده لوظيفتي نظر الجيش والخاص ثم الأستادارية فى ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ / سبتمبر ١٤٠٣ م ، بعد عزل ابن الدماميني وابن قايماز منهما ، كما أضاف إليه الوزارة بعد إعفاء أخيه ماجد ، فصار سعد الدين ابن غراب بحيازته لهذه الوظائف الديوانية الثلاث هو المتكلم فى شؤون السلطنةإذ " هى عبارة عن الدولة إلا كتابة [١]السر "[٢]، كما صار ابن غرابثانى اثنين فى تاريخ دولة المماليك حتى عصر المؤرخ ابن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م ممن انفردا بتقلد هذه الوظائف ، بعد سابقه الوزير علم الدين ابن زنبور[٣] المتوفي

: تاريخه ٤ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٨ ، ٧٣ – ٧٦ ، ١٣٠ ، ابن تغري بردي : النجوم ١٢ / ٢٨٠ ، ٢٩٨، ٢٩٩ ، ٣٠١ .

(١) كاتب السر : هو المشرف على شؤون البريد السلطاني ، ومهامه قراءة الكتب الواردة إلى السلطان ، وكتابة أجوبتها ، وأخذ توقيع السلطان عليها ، وإرسالها إلى أصحابها ، ويشارك كاتب السر الوزير في بعض الأمور ، كما يشارك الدوادار في أكثر الأمور السلطانية . القلقشندى : صبح الأعشى ٣٠/٤ .

(٢) الصفدي (خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) : أعيان العصر وأعوان النصر ٢ / ٦٥٤ ، تحقيق الدكتور / على أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

(٣) ابن زنبور : عبدالله بن أحمد بن إبراهيم ، تولى عدة وظائف ديوانية فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ثم كان أول من جمع الوظائف الثلاث =

سنة٧٥٤هـ / ١٣٥٣م [١] .

ظل ابن غراب على وظائفه حتى عُزل عنها فى جمادى الآخرة سنة ٨٠٧ هـ / ديسمبر ١٤٠٤م ، بعد هروبه إلى بلاد الشام ، وانخراطه فى الحوادث[٢] التي دارت بين حليفه الأمير يشبك والسلطان فرج بن برقوق ، والتي أسفرت عن انتصار السلطان فى ذي الحجة من السنة نفسها ٨٠٧ هـ / مايو ١٤٠٥ م بعد واقعة السعيدية [٣]، مما اضطر ابن غراب

الوزارة ونظري الجيش والخاص سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م ، وظل عليها حتى نكبه الأمير صرغتمش سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ، وصادر من ثرواته ما يفوق الحصر ، وحُبس وعُوقب ، ثم نفى إلى قوص ومات بها سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م . ابن حجر : الدرر الكامنة ٣ / ٨ ، ٩ .

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ١٠١ ، ١٣٢ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ٣٤٦، ٤٠١ – ٤٠٣ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٦٢ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ١ / ١١٠ ، ١١١ ، ٧ / ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) سيعرض الباحث بالتفصيل لهذه الحوادث في المبحث الثاني .

(٣) السعيدية : من القرى القديمة المندرسة ، كانت تقع ناحية العباسة بين بلبيس والخطارة بالشرقية ، وهى من ضمن مراكز البريد في طريق الشام ، وأسماها الظاهر بيبرس السعيدية نسبة إلى ولده السعيد محمد بركة ، ومكانها اليوم عزبة السعيدية ، المعروفة بعزبة الشيخ مطر حنفي ، الواقعة بقرب فم ترعة السعيدية المنسوبة إلى هذه البلدة بأراضي ناحية العباسة بمركز أبو حماد بمديرية الشرقية . المواعظ والاعتبار ٤ / ١٠١ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي القسم الأول ص ٧٠ .

وحليفه إلى التواري فى دور القاهرة ، ثم نجح ابن غراب بدهائه فى الظهور والعودة إلى مسرح الأحداث ، وذلك بعد ترامية على الأمير إينال[١] باي بن قجماس – صهر السلطان على أخته بيرم – ، حيث ملأ عينيه بكثرة الأموال ، فأخذ له أماناً من السلطان ، كما تعهد ابن غراب للسلطانبدفع ستين ألف دينار، فعفا عنه وأعاده إلى نظر الجيش والأستادارية ، كما جعله مشيراً[٢]، وذلك فى الشهر نفسه

---

(١) إينال باي بن قجماس ، كان والده أميراً فى سلطنة الظاهر برقوق وإينال خاصكياً له ، وترقى فى الوظائف فنال تقدمة ثم الأخورية في عهد السلطان فرج، ثم غضب منه فقبض عليه وسجنه فى الأسكندرية سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، ثم أفرج عنه بعد واقعة السعيدية ، ولما اختفى الناصر فى السنة نفسها كان أمر الدولة له ولبيبرس ، ولما عاد الناصر إلى السلطنة هرب إينال باي خوفاً منه ، ولجا إلى بلاد الشام واستولى على غزة ، فخرج إليه الأمير شيخ المحمودي وقتله سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م . ابن تغري بردي : المنهل ٣ / ٢١٧ – ٢٢١ .

(٢) المشير : من ألقاب الوزراء ومن يماثلهم ، ومعناه الذى يشير على غيره بالرأى ، وصاحبها يشرف على الدواوين السلطانية وما يرد عليها وما يصدر منها ، ولا يتصرف مباشري الدواوين فى أمر مهم من شؤون المال إلا برأيه ومشورته ، وقيل : إنها وظيفة غير دائمة يشغلها عدة أشخاص من المعدودين برجاحة رأيهم فى المملكة ، فيسر السلطان إلى أحدهم بأمر مهم سيطرح للمناقشة ورأيه فيه ، ثم يحضر أكابر الدولة ويتكلمون بشأنه فى حضور السلطان ، ويكون المشير ممثلاً للسلطان فى رأيه ، ويتحاور مع الحاضرين ويناقشهم بلسان السلطان ، حتى ينتهوا إلى رأى واحد ، وذلك =

ذى الحجة٨٠٧هـ / مايو ١٤٠٥م [١].

وبعد أن استرد ابن غراب نفوذه فى الدولة المملوكية اجتهد بدهائه ومكره للحفاظ على مكانته ، وإقصاء كل من يحاول منازعته إياها ، ولاح لسعد الدين غريم جديد قد ينال من مكانته تلك ، وهو فتح الله[٢] كاتب

حفاظاً على هيبة السلطان من أن يرد عليه أحد رأيه إن كان خطأً ، أو أن يستقل السلطان لمكانته وهيبته برأيه على الرغم من اقتناعه برأى مخالفيه . القلقشندي صبح الأعشى ٦ / ٧١ ، السحماوي (شمس الدين محمد ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م) : الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم ، المعروف باسم المقصد الرفيع الهادي لديوان الإنشاء للخالدي ص ٣٩٨ ، دراسة وتحقيق د/ أشرف محمد أنس ، مراجعة د/ حسين نصار ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، د ط ، ٢٠٠٩م / ١٤٣٠م . ابن شاهين الملطي (غرس الدين خليل ت٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٠٦، اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ، دط ، ١٨٩٣ م ،

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ١٠١ ، ١٣٢ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ٣٤٦، ٤٠١ – ٤٠٣ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٦٢ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ١ / ١١٠ ، ١١١ .

(٢)فتح الله بن مستعصم بن نفيس التبريزي الحنفي ، ولد في تبريز سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧م ، وقدم القاهرة مع أبيه ، وأجاد في الطب حتى تولى رئاسة الأطباء ، وتقرب إلى السلطان برقوق لمعرفته بالطب وباللغات المختلفة ، وصار من أخص أعوانه فقلده منصب كاتب السر ، وجعله أحد =

السر ، الذي كان مقرباً من السلطان برقوق ثم من ولده الناصر، لذلك اجتهد ابن غراب فى الإطاحة به من وظيفته لتخلو له الساحة ، خاصة وأن دوافع الصدام بينهما كانت قاب قوسين أو أدنى لما يلي :

أولاً : أن فتح الله كان مقرباً من السلطان برقوق وأثيراً عنده ، مما دفع ابن غراب إلى الترامى عليه بالطاعة والولاء ، وربما قبَّل قدمه أحياناًليجد له سبيلاً فى نيل مقاصده عند الظاهر ، ولما دارت الأيام وتولى فرج السلطنة تبدلت الأوضاع ، فعلا نجم ابن غراب على غريمه فتح الله ، وأراد أن يتخلص منه ويطيح به من طريقه ، ليطوي هذه الصفحة القاتمة من ماضي حياته [١].

ثانياً : أن ابن غراب كان قد طلب مالاً من فتح الله للأمير يشبك إبَّان محاربتهما للسلطان فرج سنة ٨٠٧ هـ /١٤٠٤م ، فأمسك فتح الله يده عن معاونتهما ، كما شح بماله وبسؤاله عن أولاد يشبك فى القاهرة خلال فترة وجوده فى بلاد الشام ، فلم يتعهدهم وهم جيرانه ، فأسر يشبك وابن غراب هذا الأمر فى نفسيهما [٢].

الأوصياء على ولده فرج ، الذي قربه إليه ، وجعله متصرفاً في الأمور ، ثم عُزل من كتابة السر بمكيدة ابن غراب له ، ثم عاد وظل عليها حتى غضب عليه المؤيد شيخ وقتله سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٣م ، السخاوي : الضوء اللامع ٦/ ١٦٥ ، ١٦٦.

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٥ ، السخاوي : الضوء ٦ / ١٦٦ .

ثالثاً :أن فتح الله بحكم كونه كاتباً للسر هو الذي كتب إلى نواب الشام بمحاربة يشبك وابن غراب ومن معهما من الأمراء المناوئين للسلطان ، الأمر الذي اقتضى الحط من مكانتهم والنيل منهم ، ووصفهم بأبشع الصفات ، وهذا ما لم ينساه ابن غراب [١].

رابعاً : أنه بعد هروب ابن غراب وهزيمته هو وحلفاؤه من السلطان بعد معركة السعيدية ، وتواريهم فى دور القاهرة ، صار فتح الله هو صاحب الحظوة والمكانة العلية عند السلطان فرج لا ينازعه في ذلك أحد ، الأمر الذي أثار حقد ابن غراب عليه[٢] .

إذن كان العداء مستحكماً بين الرجلين ، وكانت نذر الصدام بينهما واقعة لا محالة ، خاصة بعد استعادة ابن غراب لجل وظائفه ، ثم تشفعه لدى السلطان للعفو عن الأمراء المتوارين فى دور القاهرةوعودتهم إلى بيوتهم ومنهم حليفه يشبك ، الذي استعان به ابن غراب ليطيح بغريمه فتح الله كاتب السر ، ونجح ابن غراب فى نيل مبتغاه ، حيث أوغر صدر السلطان على فتح الله وأغراه بعزله ومصادرة ثرواته ،فأمر الناصر فرج بن برقوق بالقبض عليهوحبسه فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ /أغسطس ١٤٠٥م ، ومصادرة أملاكه وثرواته لصالحه ، وتعيين ابن غرابمكانه فيكتابة السر ، و منح السلطان ابن غراب تقدمة كسائر الأمراء ، وخلع عليه بطراز من ذهب ، ولم يُعهد من قبل أن يُخلع على كاتب السر بخُلع

---

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٥ .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٥ .

الأمراء ، فكان ذلك أمراً فريداً للعامة والخاصة [١]، كما أنه بولاية ابن غراب لكتابة السر يكون الرجل قد تولى صدارة الوظائف الديوانية التي تختزل فيها سلطات السلطنة جميعاً ويعبر عنها بأنها هى الدولة نفسها كما قال الصفدي [٢]وهى : نظري الجيش والخاص والوزارة وَ كتابة السر .

ظل ابن غراب محتفظاً بكتابة السر حتى بعد اختفاء [٣] الناصر فرجوسلطنة أخيه المنصور[٤]عبد العزيز فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ / أغسطس ١٤٠٥م ، فكان يقوم بأعباء المملكة الديوانية ، ويدبر أمور الدولة كيفما شاء ، وليس للمنصور من السلطنة – لحداثة عهده – سوى الاسم والتوقيع على المراسيم ، كما كان ابن غراب هو صاحب الفضل فى

---

(١)المقريزي : درر العقود ١ / ٩٥ ، ٩٦ ، ابن قاضي شهبة : تاريخه ٤ / ٤٦٥ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٨٣، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٢٦ .

(٢) أعيان العصر ٢ / ٦٥٤

(٣) سيتحدث الدارس بالتفصيل عن اختفاء الناصر ودور ابن غراب في ذلك فى المبحث الثاني

(٤) المنصور : عبد العزيز بن برقوق ، ولد بعد سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، جعله أبوه ولياً للعهد بعد أخيه فرج ، تولى السلطنة بعد إختفاء أخيه الناصر سنة ٨٠٨ هـ / ١٣٠٥م ثم عُزل بعد سبعين يوماً لعودة الناصر الذى أعاده إلى بيته ، ثم أخرجه إلى الأسكندرية فمات بها سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م . السخاوي : الضوء اللامع ٤ / ٢١٧

إعادة الناصر فرج إلى السلطنة[١] فى جمادى الآخرة سنة ٨٠٨ هـ / نوفمبر ١٤٠٥ م ، ومنذ تلك الواقعة صار الرجل هو المعول عليه فى الدولة المملوكية ، حيث أنعم عليه السلطان بإمرة مائة[٢] تقدمة ألف ، كما جعله أحد أمراء المشورة [٣]، فعلا شأنه بين معاصريه من الأمراء ، ناهيك عن نظرائه الكتاب ، حتى أنه ترفع عن وظيفة كتابة السر ، اعتزازاً بنفسه واحتقاراً لها ، فقلدها لأبن المزوق [٤]أحد غلمانه ، كما غير ابن غراب من هيئته كديواني ولبس ثياب الأمراء ، وشد السيف على وسطه ، وذهب إلى الخدمة السلطانية فى القلعة مع جملة الأمراء ، ثم نزل إلى داره بمثل

---

(١) سيتحدث الدارس بالتفصيل عن ذلك فى المبحث الثاني .

(٢) أمير مائة مقدم ألف : وظيفة من أعلى المراتب بعد الأتابك في الجيش المملوكي ، ومنها يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب ولصاحب هذه الدرجة الرئاسة على مائة فارس وألف مملوك ، ، وهي قاصرة على المماليك وحدهم ، ويكون تقلدهم من قبل السلطان . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ١٤ ، البقلي : التعريف ص٤٢ ، دهمان : معجم الألفاظ ص٢٢ .

(٣) أمراء المشورة : هم الأمراء الكبار الذين كانوا يجلسون في الاحتفالات الرسمية على يمين السلطان ويساره ، ويؤخذ رأيهم فيما يتطلب المشورة . القلقشندي : صبح الأعشى ٤ / ٤ ، ٥ / ٤٥٥ .

(٤) ابن المزوق : فخر الدين عبدالله ماجد بن سديد القبطي ، كان من أولاد الكتبة ، وخدم عند ابن غراب حتى تولى بعنايته نظر الجيش ثم كتابة السر ، ثم ولى نظر الأسطبل ، واتضع قدره فى سلطنة المؤيد شيخ والأشرف برسباى ، فُضرب بالمقارع ثم لزم بيته حتى مات سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م . السخاوي : الضوء اللامع ٦ / ٢٣٥ .

مواكبهم ، بيد أنه كان النزول الأخير ، حيث مرض بالقولنج الصفراوي ولازم الفراش شهوراً حتى وافته المنية يوم الخميسالتاسع عشر من رمضان سنة ٨٠٨ هـ / التاسع مارس ١٤٠٦ م ، وهو ابن ثمانى وعشرين سنة(١).

ولقد كان لابن غراب بحكم وظائفه الديوانية والعسكرية ، ومواهبه التي كانت ماثلة للعيان دور فى الشأن السياسيمنذ سلطنة الناصر فرج سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩م ، وحتى وفاة ابن غراب نفسه سنة ٨٠٨ هـ /١٤٠٦م ، وهذا ما سيعرض له الباحث في المبحث الثاني :

---

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٢٠، ٢٢١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٠ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ .

المبحث الثاني

الدور السياسي لابن غراب فى الدولة المملوكية

على الرغم من أن ابن غراب كان هو وأسلافه من أرباب الوظائف الديوانية فى الدولة المملوكية ، إلا أن الرجل نجح بمهارته وحنكته وأحيانا غدره فى تبوء بعض وظائف أرباب السيف ، كالأستادارية سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١م ، والإشارة سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥م، بل ونال الإمرة وأصبح له موكب وديوان كسائر الأمراء ، كما ضرب ابن غراب له بسهم وافرفي الحوادث السياسية فى عصره ، فزج بنفسه في خضم الصراعات التي دارت بين حليفه الأمير يشبك وبين منافسيه من الأمراء كجكم العوضي وسودون طاز وإينال باي بن قجماس وغيرهم ، أو ضد السلطان فرج بن برقوق من لدن توليه السلطنة وحتى وفاة ابن غراب نفسه .

وكان الدور السياسي لابن غراب متمحوراً حول الأمير يشبك الشعباني الخازندار[١]الذي كان له الفضل في دفع ابن غراب إلى سدة الوظائف فى الدولة ، حتى صار من شأنه ما صار ،و كانت أولى المشاركات السياسية البارزة لابن غراب قد وقعتبعد بضعة شهور من

---

(١) الخازندار : مركبة من لفظين : أحدهما : عربي وهو خزانة ، وهي ما يخزن فيه المال ، والثاني : فارسي وهو دار ، ومعناه : ممسك ، والمراد ممسك الخزانة ، أي المتولي أمرها ، ومهام صاحبها الإشراف على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك ، ورتبة صاحبها طبلخاناة . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ٢١ ، ٥ / ٤٣٥ .

تولي الناصر فرج الحكم ، حيث كانالسلطان ما يزال صغيراً تحت وصاية مجموعة من رجال الدولة منهم ابن غراب والأمير يشبك الشعباني ، وكان يتولى تدبير أمور الدولةالأمير الكبير أَيْتَمُشْ[١] البجاسي الأتابك[٢]، وهو من كبار أمراء أبيه ، بيد أن هذا الأمر أزعج غير واحد من الأوصياء ، وعلى رأسهم يشبك الشعباني ، والأمير سودون طاز ، وابن غراب الذي شجع حليفه يشبك على ترشيد السلطان فرج ؛ للتخلص من استبداد أَيْتَمُشْ بالسلطان وبالدولة ، فقام يشبك فى ربيع الأول سنة ٨٠٢ هـ / أكتوبر ١٣٩٩ م بجمع رؤوس الدولة ، وعلى رأسهم الخليفةالمتوكل

---

(١)أَيْتَمُشْالبجاسي ،أحد مماليك الأمير أسندمر البجاسي ، ترقى بعد موته وصار من جملة الأمراء فى مصر ، وتولى الأتابكية ، كما شارك مع برقوق فى قتال يلبغا الناصري ومنطاش ، ثم عاد إلى مصر بعد عودة برقوق لسلطنته الثانية سنة ٧٩٢ هـ /١٣٩٠ م ، فأعاده إلى وظائفه ، وجعله مدبراً لمملكة ولده فرج ، ثم خاص صراعاً ضد مناوئيه من الأمراء حتى قبض عليه الناصر فرج وقتله فى دمشق سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م. ابن تغري بردي : المنهل ٣ / ١٤٣ – ١٥١ .

(٢) الأتابك : يتألف هذا المصطلح من كلمتين : (أتا) بمعنى الأب أو الشيخ المحترم لكبر سنه ، و(بك) بمعنى أمير ، والأتابك أبو الأمراء ؛ إذ إن صاحبها أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب ، وأطلق هذا المصطلح على القائد العام للجيش المملوكي الذي كان يسمى أتابك العسكر . القلقشندي : صبح الأعشى ٤/ ١٨ ، حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، ص١٢٢ – ١٢٤ ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د ط ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

[١]علىاللهمحمد، وأشهد الجميع بأن السلطان بلغ رشدهوهو في الثانية عشرة من عمره، فحكم القضاة بفك الحجر عنه ، ومباشرته مهام عمله من دون وصاية أحد عليه ، وكان القرار الأول للسلطان الشاب الإطاحة بالأمير أَيْتَمُشْ من سكنىالقلعة بجواره والنزول إلى بيته ، الأمر الذى أغضب الأمير وحلفاءه، فنشب القتال بينه وبين مناوئيه ، وعلى رأسهم الأمير يشبك الشعباني ، ودارت الدائرة على أَيْتَمُشْ، ففر إلى بلاد الشام ، ونصب السلطان الأمير بيبرس[٢] الدوادار[١] أتابكاًخلفاًلأَيْتَمُشْ، كما حل

---

(١)المتوكل : محمد بن أبي بكر بن سليمان ، الخليفة العباسي السابع في مصر المملوكية ، تولى الخلافة بعهد من أبيه سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م ، وظل فيها خمسا وأربعين سنة ، خلع منها مرتين ، وولي سلاطين المماليك مكانه المستعصم بالله زكريا، والواثق بالله عمر ، ثم عاد المتوكل للخلافة سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٨م ، وظل فيها ، حتى وافته المنية في سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م ، بعد أن عهد بالخلافة لولده العباس . ابن حجر : إنباء الغمر ٥/ ٣٣٦ – ٣٣٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ٧/ ١٦٨ .

(٢) بيبرس: أحد مماليك الظاهر برقوق وابن أخته ، أستقدمه إلى مصر ، ورباه وأمّره ورقاه حتى صار أمير مجلس ، ثم دواداراً سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م ، وفى سلطنة الناصر فرج وبعد ترشيده جعله أتابكاً سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م بعد عصيان الأمير أَيْتَمُشْ البجاسي ، وظل على ذلك حتى اخفى ابن غراب الناصر فرج عن السلطنة ، ولما عاد السلطان إلى الحكم سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، قاتله بيبرس ثم هرب ، فقُبض عليه وحُبس فى الأسكندرية ، وظل فى محبسه حتى قتل سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م مع بعض الأمراء الذين قاتلهم الناصر عند رجوعه إلى سلطنته الثانية . ابن تغري بردي : =

يشبك الشعباني فى الدواداريـــة خلفاً لبيبرس [٢].

وكانت المشاركة السياسية التالية لابن غراب قد وقعت حينما نشب صراع عسكري بين الأمير يشبك والأميرين جكم العوضى وسودون طاز في ذى الحجة سنة ٨٠٣ هـ / يولية ١٤٠١م ؛ لرفضهما وأعوانهما الامتثال لقرارات السلطان فرج بن برقوق ، بشأن تولية بعضهم حكم نيابات الشام ، تلك التي تعرضت لنكبة كبرى على يدي تيمورلنك [٣]، ولما نشب القتال

المنهل ٣ / ٤٨١ – ٤٨٣ .

(١) الدوادار : اسم فارسي مركب من لفظين ، أحدهما : عربي وهو الدواة ، والثاني : دار ومعناه ممسك ، وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما ، ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمات ، كتبليغ الرسائل عن السلطان ، وتقديم القصص إليه ، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف ، وتقديم البريد . القلقشندي : صبح الأعشى ٤ / ١٩ ، البقلي : التعريف ص ١٣٩ .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٣ ، ٩٤ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣٠٩، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ١٨٢ ، ١٣ / ٤٤ .

(٣) تيمورلنك : ولد سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٨٢م ، وكان في بداية أمره من أتباع طقتمش خان آخر الملوك من ذرية جنكيزخان فلما مات استقر أتابكًا لابنه محمود ، ثم تغلب عليه ، واستولى على بلاد المشرق وبغداد ، واتصلت مملكته بالجزيرة وديار بكر ، فهبَّ السلطان برقوق لقتاله ، فغادر بلاد العراق وعاد إلى بلاد المشرق ، ولما توفى برقوق عاد تيمورلنك واسترد بغداد ، وأنزل ضرباته ببلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م ، ثم عاد إلى بلاده فتوفى =

بين الفريقين وقف الناصر فرج على الحياد حتى أسفر الأمرعن هزيمة يشبك والقبض عليه وسجنه فى الأسكندرية ، حينئذ اختفى ابن غراب وتوجه إلى تروجة سراً محاولاً إطلاق سراح حليفه الأمير يشبك من محبسه ، ومستعيناً على ذلك بما أوتي من مكر ودهاء ، حيث حمل أمراً سلطانياً مزوراً إلى شيوخ تروجة ، باستخراج الأموال السلطانية المفروضة عليهم وتسليمها إياه بحكم مهام وظائفه ،ومساعدته في إطلاق سراح الأمير يشبك ومن معه من محبسهم ، بيد أن شيوخ تروجة تشككوا فى الأمر ، فلم يستجيبوا له ، وأسرعوا بإرسال الخبر إلى السلطان ، الذي أمرهم بعدم تسليمه الأموال ، والقبض عليه وإرساله هو ومن معه إلى القاهرة(١).

لم يكن هذا هو الإخفاق الوحيد الذي منى به ابن غراب حينئذ ، بل تأتي الرياح بما لاتشتهي السفن ، حيث أسرع نائب الأسكندرية الأمير أرسطاى (٢) بإبلاغ الناصر فرج بتحركات ابن غراب فى تروجة ، وقيامه

أثناء زحفه لفتح الصين سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م . ابن حجر : إنباء الغمر ٥/٢٣١- ٢٣٥ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ٤/١٠٣-١١٠ ، السخاوي: الضوء اللامع ٣/٤٦ – ٥٠ .

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ٦٦ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ١٩٢ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ٢٣٩، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) أرسطاى الظاهري برقوق ، كان من أعيان أمراء الطبلخاناة فى عهد أستاذه برقوق ، ثم صار رأس نوبة كبير ، وكانت له حرمة وافرة عند المماليك ، تولى الحجوبية الكبرى بالقاهرة فى عهد السلطان فرج ، وبعدها تولى نيابة =

باستقطاب زعران[١] الأسكندرية إليه ، بمنحهم الأموال للهجوم عليها وقتله ، وإطلاق سراح حليفه يشبك ، بيد أن النائب أرسطاي كان من الحيطة والحذر، فتصدى لهجومهم ، وقتل بعضهم، وظفر بكتاب مرسل منه لبعض تجار الأسكندرية ، يطلب منه مقابلة النائب وتحذيره من التعرض للأمير يشبك وإطلاق سراحه ، وعدم الامتثال للقرارات الصادرة من السلطان وأمرائه فى القاهرة بشأن قتله ، ويحذره من الوقوع فى هذا الأمر، حتى لا يحدث له كما حدث لابن عرام،حينما قتل الأمير بركة[٢]بأمر من الظاهر برقوق [٣] .

الأسكندرية ، توفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م . ابن تغري بردي : المنهل ٢ / ٢٦٦ .

(١) الزعران : هم السوقة وقطاع الطرق ومن لاعمل له . مصطفى الخطيب : معجم المصطلحات ص ٢٢٢ .

(٢) بركة الأتابك : كان ممن مماليك الأمير يلبغا ، ثم صار فى خدمة أولاد الملك الأشرف شعبان ، ثم ترقت به الأحوال واستبد هو وبرقوق بأمر الدولة ، ثم اختلفا فقبض برقوق عليه وسجنه فى الأسكندرية ، وأرسل مرسوماً لابن عرام والى الأسكندرية بقتله سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م ، مما أغضب أخوة بركة ومماليكه ، وخرجوا لقتال برقوق متهمين إياه بقتله ، فأنكر الأمر مدعياً أن ابن عرام قتله من تلقاء نفسه ، ثم أرسل برقوق من أحضر ابن عرام إلى القاهرة ، فلما رأه إخوة بركة ومماليكه قتلوه . ابن تغري بردي : المنهل ٣ / ٣٥١ – ٣٥٥ ، النجوم الزاهرة ١١ / ٢٠٤

(٣) المقريزي : السلوك ٦ / ٦٦ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ١٩٢ ، =

أدرك ابن غراب فشل خطته فى إطلاق سراح حليفه يشبك من محبسه ، وصعوبة الاستمرار في مناوأة السلطان وأمرائه فى القاهرة ، فاستعانبالمكر والدهاء ، وأرسل إلى الناصريطلب منه العفو والأمان ، مستشفعاًبشيوخ تروجة الذين كتبوا إلى السلطان بذلك فمنحه إياه ، فعاد ابن غراب إلى القاهرة خفية فى ذى الحجة سنة ٨٠٣هـ/ يولية ١٤٠١م، ومكنه الأمير سودون طاز من حضور مجلس السلطان ، الذي خلع عليه خلعة الرضا ، وأعاده إلى وظائفه ، وهكذا نجح ابن غراب بمكره ودهائه فى تجاوز هذه المحنة التي كادت أن تعصف به وبطموحاته للأبد ، خاصة وأن حليفه يشبك ظل قيد الأغلال حتى سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١م ، حيث أطلق السلطان سراحه ، وولاه الدوادارية بدلاً من غريمه الأمير جكم العوضي ، الذي حل به غضب الناصر فرج، فأمر بالقبض عليهوحبسه فى الأسكندرية (١).

ظلت أواصر التحالف السياسي معقودة بين ابن غراب والأمير يشبك لسابق علاقاتهما وزادت بمرور الأيام لتوافق مصالحهما وأهدافهما ، واتخذت المشاركة السياسية لابن غراب صوراً أشد وضوحاً من ذي قبل ، ومنها خروجهما على السلطان فرج ، ومحاربتهما إياه ، ثم فرارهما إلى

---

١٩٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ٢٣٩، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٧٩،٢٨٠ .

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ٦٦ ، ٦٧ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ١٩٣ ، ١٩٤ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٤ / ٢٣٩، ٢٤٠ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ .

بلاد الشام فى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م ، وكان السبب فى ذلك هو التنافس الذى وقع بين الأمير يشبك ونظيره إينال باي بن قجماس – صهر السلطان على أخته بيرم – على نفوذهما فى الدولة ، ومكانتهما من السلطان ، ومحاولة يشبك إقصاء الأمير إينال من الأخورية[١]، إذ سرعان ما نشب القتال بين الأميرين ، وناصر السلطان فرج صهره الأمير إينال باي حتى دارت الدائرة على يشبك وأتباعه ، ففروا ومعهم ابن غراب نحو بلاد الشام [٢] .

أمد ابن غراب الأمير يشبك ومن معه بما يحتاجونه من المال من لدن خروجهم من مصر وحتى وصولهم إلى دمشق فى رجب سنة ٨٠٧هـ/ يناير ١٤٠٥ م، كما استنفر ابن غراب نواب الشام وحرضهم على المسير لقتال السلطان ، ونجح فى تكوين تحالف عسكري من أمراء الشام وبعض التركمانالذين زحفوا نحو مصر ، والتقوا بالناصر فرج فى واقعة السعيدية ، ودارت الدائرة على السلطان ، فارتد نحو القاهرة وتحصن بالقلعة ، ثم تمكن فى الجولة التالية من القتال من إنزال الهزيمة بمناوئيه، وشتت شملهم ، فعاد بعضهم إلى بلاد الشام ، بينما استخفى آخرون فى دور

---

(١) أمير أخور : صاحبها يتحدث على أسطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والأبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الاسطبلات ، وهو مركب من لفظين الأول أمير ، والثانى : فارسي وهو أخور ، ومعناه المعلف ، فيكون معنى أمير أخور أمير المعلف ، لأنه المتولي أمر الدواب . البقلي : التعريف ص ٤٧ .

(٢) ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٠٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٠٣ – ٣٠٦ .

القاهرة ، وكان من هؤلاء الأمير يشبك وابن غراب الذي تجلت مواهبه فى الدهاء والحنكة واجتهد ليرتق ما فتق ، فترامى على الأمير إينال باي خصمهما السابق ، وملأ عينيه بكثرة الأموال ، حتى أخذ له أماناً من الناصر ، فأعاده إلى بعض وظائفه ، وما زال ابن غراب بالسلطان يسترضيه على الأمراء المتوارين فى القاهرة ، وعلى رأسهم الأمير يشبك ، حتى نال منه أماناً ، فخرجوا وعادوا إلى بيوتهم من دون وظائف ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ / أغسطس ١٤٠٥م [١] . ولقد علق ابن الصيرفي [٢] على عودة ابن غراب ولقائه بالسلطان ودهائه فى استرضائه بقوله:" كان هذا الأمر كله مكراً وحيلة منه".

تصاعد الدور السياسي لابن غراب فى الدولة المملوكية فى أخريات حياته ، وكانت ذروة مشاركاته فى الصراعات السياسية بين الأمراء، قيامه فى السنة نفسها ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م بدفع السلطان فرج بن برقوق إلى الأختفاء عن الساحة ، وترك السلطنة ليتولاها أخوه المنصور ، وذلك لتحقيق الأهداف السياسية له ولحلفائه ، ولما فشلت مساعي ابن غراب في نيل مبتغاه بهذه الطريقة ، قام بإعادة الناصر فرج إلى سدة الحكم ونال ما يريد بنقيض ما دبر .

---

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ١٣٢ ، درر العقود ١ / ٩٤ ، ٩٥ ، ابن قاضى شهبة : تاريخه ٤ / ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٠٢، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٢١ .

(٢) نزهة النفوس ٢ / ٢٠٥

وترجع بوادر هذه الواقعة إلى ما قبل حدوثها بشهور ، حيث سادت حالة من الشك والريبة من السلطان فرج تجاه مماليك أبيه القرانيص[١]الجراكسة ، لاسيما وقد حاول أحدهم إغراق السلطان وهو يلهو معه مدعياً أنه يمازحه ، مما جعل السلطان يتوجس منهم خيفة ، ويحاول إقصائهم عن مكانتهم ومناصبهم ، واجتهد فى الوقت نفسه في تقريب مماليكه الروم الجلبان[٢]، والاعتماد عليهم فى شؤونه ، وتواكب مع هذه الحالة من الشك والريبة المتبادلة بين الطرفين ، عفو السلطان عن الأمير يشبك وأعوانه ، والسماح بعودتهم إلى بيوتهم من دون وظائف ، وذلك بجهد من ابن غراب ، الذى سعى حينئذ لاغتنام هذه الحالة من الريبة المتبادلة بين السلطان وأمرائه ؛ لينال وتره من أعدائه الجراكسةكالأمير إينال باي – صهر السلطان – ونظيره بيبرس الأتابك– ابن أخت الظاهر برقوق –وغيرهما ،وهم الذين دفعوا الناصر إلى محاربة ابن غراب ويشبك وحلفائهما في السعيدية وما بعدها[٣].

أسر ابن غراب هذا العداء لمعارضيه فى نفسه ، حتى لاحت له

---

(١) القرانيص : هم من مماليك السلاطين القدامى . دهمان : معجم الألفاظ ص ١٢٢

(٢) الجلبان : هم المماليك الجدد الذين أشتراهم السلطان . دهمان : معجم الألفاظ
ص ٥٣.

(٣) المقريزي : درر العقود ١/ ٩٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٢٥ . ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، السخاوي : وجيز الكلام ١/ ٣٨١

فرصة نيل وتره منهم ، فخلا بالسلطان وبث في نفسه الخوف من مكر الأمراء القرانيص الجراكسة به ، حتى اشتد جزع الناصر فرج ، فزين له ابن غراب الاختفاء من القلعة وترك السلطنة حتى ينجو بحياته ، فانصاع السلطان لذلك ، والتمس من ابن غراب ترتيب هذا الأمر من دون أن يشعر به أحد ، وكان ابن غراب يهدف من إخفاء الناصر واعتزاله الحكم تحقيق أمرين : ألأولالنيل من الأمراء الجراكسةوإقصائهم من مناصبهم ، والقضاء على نفوذهم فى السلطنة وهم الذين كانوا سبباً فى محاربة السلطان له ، والثاني : استعادة ابن غراب وحلفائه –وهم الذين كان السلطان يبغضهم ، وحاربهم فى موقعة السعيدية وهزمهم بعدها–لمكانتهم ووظائفهم فى الدولة، ناهيك عن رغبة ابن غراب قبل هذا وذاك فى إظهار نفسه وحلفائه أنهم أصحاب الفضل فى إعادة الناصر إلى السلطنة [١].

مما سبق عرضه يتبين للدارس أن أهم دور سياسي اضطلع به ابن غراب فى حياته كانالتدبير لإخفاء الناصر فرج من مسرح الأحداث ثم إعادته إلى السلطنة ، وأن هذا الأمر كان جولة من جولات الصراعالسياسي بين جناحين من أجنحة الدولة المملوكية الثانية ، الجناح الأول يمثله الأمير يشبك وابن غراب ومن دار فى فلكهما من أمراء المماليك الجلبان الروم ، وهم الذين حاربهم الناصر من قبلوعزلهم من وظائفهم ، والجناح الثاني مكون منالأمراء الجراكسة القدامى المتسلطينعلى السلطان فرج لكونهم أمراء أبيه ، وهم الذين دفعوه إلى محاربـــــة يشبك

---

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٦ ، السلوك ٦ / ١٤٢ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥/ = = ٣٠٩، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٢٨ .

وأعوانـــه من قبل.

رتب ابن غرابالأمر بنفسه ، فخرجالسلطان فرجمن عند نسائه في وقت الظهيرة متخفياً،ونزل من القلعة سراً فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ / التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٤٠٥ م ،وليس معه سوىالأمير بيغوت [١]، وركبا فرسين ثم لحق بهما يوسف بن قطلوبكصهر ابن غرابومملوكه بكتمر[٢]، فسار الأربعة خفية إلى بركة الحبش[٣] ، ونزلوا منها إلى مركب في النيل وظلوا فيه طيلة يومهم ، ثم

---

(١) بيغوت بن عبد الله الظاهري برقوق ، ترقى في الوظائف حتى صار أحد مقدمي الألوف في سلطنة الناصر فرج بن برقوق الذي زوجه من أخته ، وظل صاحب مكانة كبيرة عند السلطان ، وولاه نيابة دمشق لما وصلها الناصر فرج سنة ٨١٠ هـ وفر منها الأمير شيخ ، ثم عزله بعد قليل وعاد بيغوت إلى مصر مع الناصر فرج وظل على إمرته ، وما لبس أن تنكر له السلطان ، وقبض عليه وسجنه في الإسكندرية ، ثم قتله في سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ٣ / ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(٢) بكتمر بن عبد الله السعدي ، مملوك سعد الدين بن غراب ، تربى عنده صغيراً وتعلم الكتابة والقرآن ، وكان فصيحا ذكياً ، ترقى في الوظائف حتى نال الإمرة ، وأرسله السلطان إلى صاحب اليمن رسولاً ، توفي سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م . السخاوي : الضوء اللامع ٣ / ١١

(٣) بركة الحبش : ليست بركة بالمعنى المعروف ، وإنما هى عبارة عن حوض من الأراضي الزراعية التي كان يغمرها النيل عند فيضانه في كل سنة ، وهي من أشهر برك مصر في ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين النيل والجبل ، وسميت بالحبش لوجود جنان فيها لبعض الرهبان الحبش ، =

ساروا بالمركب ليلاً إلىبيت ابن غراب الواقع عند بركة الفيل [١]فلم يجدوه ، فساروا على أقدامهم حتى نزلوا في بيت أحد أقارب بكتمر ، وأرسلوا بخبرهملابن غراب، فقام بنفسه بنقل السلطان إلى أحد بيوته من دون أن يعلم أحد بذلك ، وأشاع ابن غراب أن الناصر فر إلى بلاد الشام أو قُتل ، فاجتمع كبار رجال الدولة ومعهم ابن غراب الذي كتم الأمر عنهم ، واتفقوا على سلطنة عبد العزيز بن برقوق ولُقب بالمنصور ، وصار الأمير بيبرس الأتابك صاحب الحل والعقد فى الدولة ، وابن غراب كاتباً للسر كما كان من ذي قبل ، وظل ابن غراب يطالع الناصر فرجسراً بكافة التطورات التي تحدث فى الدولة إبّان فترة اختفائه ، بصورة تحقق له أهدافه هو وحلفاؤه ، من إعلاء شأن الأمير يشبك وأعوانه ، والحط من شأن مخالفيه من الأمراء ، بما يزيد من حقد السلطان عليهم ، ويؤجج نار العداوة لهم ،

ويحدها من الشمال صحراء جبانة مصر وجبل الرصد الذي يعرف بجبل أصطبل عنتر وأرض قرية أثر النبي ، ومن الغرب جسر النيل ، ومن الجنوب والشرق باقي أراضي ناحية البساتين التابعة لمركز الجيزة . محمد رمزي : القاموس الجغرافي القسم الأول ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(١) بركة الفيل : أراضي زراعية كان يغمرها الماء وقت الفيضان فتصير بركة كبيرة ، تقع ظاهر القاهرة ، تمتد من بستان الحبانية إلى بستان سيف الإسلام إلى تحت الكبش إلى الجسر الأعظم الفاصل بينها وبين بركة قارون ، ومناظر الكبش مطلة عليها ، ولم يشرع الناس في البناء حولها إلا بعد سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م ، وسميت بذلك لوجود دار للفيلة على شاطئها أقامها الأمير خمارويه . محمد رمزي : القاموس الجغرافي القسم الأول ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

توطئة لإقصائهم عن مكانتهم فى الدولة بعد عودة الناصر فرجإلى السلطنة [١] .

ظل الناصر فرج متوارياً عن الأنظار فى بيت ابن غراب الذي اجتهد لتحقيق مآربه مما فعل ، بالسعي لإقصاء مناوئيه عن شؤون الحكم والإدارة فى الدولة ، وتقديم حليفه يشبك إلى صدارتها ، ولتحقيق مبتغاه حاول التخلص من الأمير إينال باي صهر السلطان حينما وفد عليه فى بيته ، بيد أنه أخفق في ذلك لكثرة مرافقيه ، ولم تكن هذه هى العقبة الكئود التي حالت بين ابن غراب وتنفيذ خطته ، فقد زادت الأمور سوءاً حيث حدثت تغيرات فى موازين القوى بين الأمراء لغير صالحه ، فقد علا شأن الأمير بيبرس الأتابك على كل الأمراء ، فصار يخص حواشيه بالوظائف والأموال الجزيلة ، وانخفضت مكانة الأمير يشبك ومن معه من الأمراء ، حتى صارأتباعه يقفون على أبواب نظيره بيبرس ، ويلتمسون منه ما يحتاجون إليه من الوظائف أو الأموال، ولم يكن معهوداً من قبل أن تكون لهذا الأمير هذه المكانه فى الدولة ، مما جعل ابن غراب وحلفائه يندمون على ما وقع منهم فى حق الناصر ومحاربته ، إذ كانو يتمتعون فى وجوده بقدر من المميزات فقدوه باختفائه ، مما ترتب عليه تبوء مثل بيبرس وإينال باي شؤون الدولة ، وهما أبعد ما يكونان عن ذلك[٢].

---

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٦ ، السلوك ٦ /١٤٢ ، ١٤٣ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٨٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٣٠ ، ١٣ / ٤٢ .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٦ ، ٩٧ ، السلوك ٦ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، =

ظل ابن غراب رابط الجأش ، كاتماًلخبر وجود الناصر في بيته حتى عن أقرب مقربيه ، حتى وقعت هذه التطورات الأخيرة من علو شأن الأمير بيبرس الأتابك والتي لم تكن في حسبان ابن غراب ولا في صالحه هو ولا صالح حليفه الأمير يشبك ،مما دفع أبن غراب لأن يفصحللأمير يشبك عن وجود الناصر فرج في بيته ، وأنه هو الذي خطط لاخفائه ،فابتهج يشبك بذلك كثيراً، واتفق هو وابن غراب وحلفاؤهما كالأمير سودون الحمزاوي وقطلوبغا الكركي على إعادة فرج إلى سدة الحكم فى اللحظة المناسبة ، لتكون لهم الحظوة عنده ،وليستردوا مكانتهم المفقودة في الدولة وينفردوا بتدبير أمورها ، ولتكون لهم الكلمة العليا على سائر الأمراء ، خاصة أولئك الذين علا شأنهم فى سلطنة المنصور كبيبرس وإينال باي[١].

شرع ابن غراب وحلفاؤه فى تنفيذ خطتهم فى مستهل جمادى الآخرة من السنة ذاتها ٨٠٨ هـ / نوفمبر ١٤٠٥م ، حيث مرض السلطان المنصور ، وأرجف الناس بعودة الناصر فرج، بعد أن تناثرت الشائعات بأنه ما يزال حياً ومختفياً فى أحد دور القاهرة ، وفى ليلة السبت السادس من الشهر نفسه جمادى الآخرة ٨٠٨ هـ/ الثامن والعشرين من

ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٨٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٢ ، ٤٣ .

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٧ ، السلوك ٦ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٩٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٣ – ٤٧ ، ابن الصيرفي : نزهة النفوس ٢ / ٢١٤ ، ٢١٥ .

نوفمبر ١٤٠٥ م ، وبعد سبعين يوماً من اختفاء انطلقالناصر فرج ويشبك من بيت ابن غراب الذي لبس لأمة الحرب ، واتجه الجميع إلى بيت الأمير سودون الحمزاوي حيث انضم إليهم الأعوان ، ثم توجهوا نحو القلعة وهم على أهبة الاستعداد للقتال ، فدخلوها بعد مقاومة من أتباع الأميرين بيبرس وسودون [١] المارديني[٢].

استرد الناصر فرج بن برقوق السلطنة وأقصى أخاه المنصور ، لتبدأ الفترة الثانية من حكمه ، وأمر السلطانعلى الفور بالقبض على الأمراء الذين نصبوا أخاه المنصور سلطاناً ، فقبض على بيبرس وسودون المارديني وحبسا فى الأسكندرية ، بينما فر إينال باي، وخلع الناصر فرجعلى الأمير يشبك بالأتابكية خلفاً لبيبرس ، وصار هو الأمير الكبير فى الدولة الذى لا يشق له غبار ، ولا تقضى دونه الأمور ، وذلك بفضل

---

(١) سودون المارديني الظاهري ، كان خصيصاً عند السلطان برقوق ، ترقى فى الوظائف حتى صار أمير مائة مقدم ألف ، وفي عهد السلطان فرج أصبح رأس نوبة ، ثم أمير مجلس ، ثم دواداراً سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م بعد عصيان الأمير يشبك ، ولما ظهر الناصر بعد اختفائه سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م قبض عليهما وأمر بقتلهما سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م . ابن تغري بردي : المنهل ٦ / ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٧ ، السلوك ٦ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٩٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٣ – ٤٧ ، ابن الصيرفي : نزهة النفوس ٢ / ٢١٤ ، ٢١٥ .

الخطة المحكمة التي وضعها ونفذها حليفه ابن غراب[١].

لا مراء في أن ابن غرابكان هو صاحب الباع الأوفى فى إخفاء الناصر ثم إعادته إلى السلطنة ، ومن ثم فقد نال الحظوة والمرتبة العاليةعند السلطان ، الذي منحه رتبة أمير مائة مقدم ألف ، كما جعله مشيراً ، وفوض إليه ما وراء سرير ملكه ، وألقى إليه بكافة مقاليد الدولة ، وناط به تدبير جميع شؤونها من غير مراجعته ، كما أصبح ابن غراب بعد تلك الواقعة مولى نعمة لكل من السلطان والأمراء كافة ، يمن على أعدائه بأنه أبقى لهم مهجهم بعد عودة الناصر ، ويذكِّر حلفاءه بأنه أعاد إليهم سائر ما سلب منهم من مكانتهم ونفوذهم ووظائفهم ، وأنه أمدهم بماله وثرواته فى وقت حاجتهم إليه وهروبهم إلى الشام ونزول الفاقة بهم ، كما كان الرجل يصرح ويفخر على الجميع بأنه أقام دولة المنصور ، وأزال سلطنة الناصر ، ثم نقض ما أقام ، وأعاد ما هدم ، من غير حاجة ولا ضرورة أجبرته على ما فعل ،[٢]فكان كما قال المقريزي[٣] : " كم ثل عرشاًوناطح كبشاًوعالج جبالاً شامخة ، واقتلع دولاً من أصولها الراسخة ".

---

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٧ ، السلوك ٦ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٢٩٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٣ – ٤٧ .

(٢) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، المواعظ ٤ / ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣٠٩ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٣ / ٤٨ ، السخاوي : الضوء ١ / ٦٦

(٣) المواعظ ٤ / ٢٩٠ ، ٢٩١ .

لا جرم في أن ابن غراب كان مؤهلاً للوصول إلى ما وصل إليه من مناصب ومكانة علية فى الدولة المملوكية ، فقد كان الرجل محباً للرئاسة ، شديد الزهو بنفسه ، متمتعاً بقدر كبير من المكر والدهاء السياسي ، والمعرفة التامة بأخلاق وطباع أهل الدولة من الأمراء مؤيدين ومعارضين ، ومستعيناً على قضاء حوائجه ببذل الأموال الجليلة ، وبلغ من شدة دهاء ابن غرابأنه تلاعب بأرباب الدولة أمراء وسلاطين ظهراً لبطن ، وخدم عند الأضداد مع الحفاظ على مكانته ، فقد حارب السلطان الناصر فرج وأمراءه غير مرة ، وأقصاه عن الحكم لحاجة فى نفسه قضاها ، ثم رتب له الأمر ليعود إلى السلطنة ، الأمر الذي دفع ابن غرابأن يجهر أمام معاصريه من الأمراء وكبار رجال الدولة بأنه لو أراد السلطنة لنفسه لحازها، حتى أشاع عنه معاصروه أنه لابد أن يلي السلطنة يوما ما ، بيد أنه تعفف عنها وامتن بها على غيره ، الأمر الذى صار مثار افتخار له على الكافة [١]، ومن ثم استحق وصف المقريزي [٢] له بأنه"عزيز مصر،... غلاب الدول "

ومما يدلك على عظم المكانة السياسية التي حازها ابن غراب فى الدولة المملوكية ما وقع له في مرض موته وكان مايزال شاباً ، حيث عاين الناس من تعظيم الأمراء له فى مدة مرضه ، وفيهم من كبار أمراء الدولة كالأمير يشبك وغيره ، وترددهم إليه في كل يوم لعيادته وهم وقوف

---

(١) المقريزي : السلوك ٥ / ٤٥٨ ، المواعظ ٤ / ٢٨٩ ، ابن قاضي شهبة : تاريخه ٤ / ٤٠١ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ابن تغري بردي : المنهل ١٠٦/١ ، السخاوي : الضوء ١ / ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) درر العقود ١ / ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

على أقدامهم ، وسرعة استجابتهم لما يأمر به وينهى مالم يعهد مثله إلا لكبار الملوك والسلاطين ، ولما فاضت روحه إلى بارئها نزل الناصر فرج بنفسه للصلاة عليه ومعه جل أمراء الدولة ، وحمل تابوته على كتفه ، وعزم على المضي به قدماً إلى مثواه الأخير ، لولا إلحاح الأمراء عليه بأن يصعد إلى القلعة ، لطول المسافة من المصلى المؤمنيتحت القلعة حتى مدفنه بظاهر باب المحروق [١] ، كما تناوب الأمراءحمل جثمانه حتى وُسِّد الثرى ، وأجربالناصر الأرزاق على أولاده من بعده ، ولم يتعرض لتركته بشيء مما جرت العادة أن تحدث لمن يموت من المباشرين في الدولة من مصادرة ؛ وذلكاعترافاً بفضله عليه فى إعادته إلى السلطنة [٢].

فكل هذه الشواهد تؤكد بما لايدع مجالاً للشك علو المكانة السياسية التي تمتع بها ابن غراب بين معاصريه فى الدولة المملوكية ، ولم يقف دور ابن غراب عند المجال السياسي في الدولة المملوكية ، وإنما كان للرجل كذلك دور اجتماعي محمود بذ فيه معاصريه ، وهو ما سيعرض له الباحث في المبحث الأخير .

---

(١) باب المحروق : أحد أبواب ثلاثة للقاهرة من الجهة الشرقية ، كان يعرف قديماً بباب القراطين ، أحرقه أعوان الأمير أقطاي بعد مقتله سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م ، ليخرجوا من القاهرة التي كانت تغلق أبوابها ليلاً ، فسمي من يومئذ بالمحروق. المقريزي : ٢ / ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) المقريزي :درر العقود ١ / ٩٧ ، ٩٨ ، المواعظ ٤ / ٢٩١ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣٠٩ ، السخاوي : الضوء ١ / ٦٦ .

المبحث الثالث

الدور الاجتماعي لابن غراب فى الدولة المملوكية

كما كان لابن غراب دور فاعل فى المجال السياسي فى الدولة المملوكية ، كان له كذلك جهد اجتماعي محمود سطره له المؤرخون فى مواجهة الوباء الذي ضرب مصر سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، بعدما هبت عليها ريح شديدة البرد ، أعقبتها حمى مات على إثرها عدد كبير من المصريين ، زاد عددهم فى اليوم الواحد بالقاهرة وحدها عن ألف نسمة ، ومما فاقم من شدة الأزمة حينئذ ، حدوث المجاعة وقلة الأقوات وغلاء الأسعار ، فضرب أهل المروءة من الأمراء – كسودون الحمزاوي وسودون الماريني وابن غراب – لهم بسهم وافر فى تكفين الموتى من الشوارع ومواراتهم الثرى ، وكان ابن غراب صاحب الباع الأوفى فى هذا العمل الإنساني ، حيث تكفلبتجهيزودفن مائتي نسمة يومياً ، والأمراء الباقون كل واحد منهم مائة (١).

ولم يكتف ابن غراب بذلك بل كان له دور مشكور في تجاوز آثار المجاعة ، بكسوة المحتاجين ، وتوزيع الخبز والطعام علىالفقراء ،وبذل الأموال فى طرق الخير ، ولما طال أمر الوباء لشهور متتالية وعجز كبار

---

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ١٠٣، ابن قاضي شهبة : تاريخه٤ / ٣٥٣ ، ٣٦٠ ،٣٦١،ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ١٣٧، ابن تغري بردي : المنهل ١ / ١١٢ ،السخاوي : الضوء ١ / ٦٥ ، عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ٣ / ١٠٠ ، ١٠١ .

الأمراء عن مواصلة جهودهم فى دفن الموتى ، أصر ابن غراب على القيام بالأمر حتى ولو أنفق كل ماله ، واجتهد الرجل فى الأمر اجتهاداً محموداً ، حتى صار يضرب بموقفه المثل فى تجاوز هذه المحنة فقيل : " فصل ابن غراب "، حيث فتح مغسلاً فى بيته ، وكان الحمالون يأتون إليه بمن وافته المنية في الطرقات ، فيضعونه على بابه ، فيتولى أمرهم ، حتى بلغ عدد من واراهم الثرى ١٢٧٠٠ نسمة من رجب إلى شوال من السنة المذكورة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م(١) .

وإن دلهذا الموقف من ابن غراب على شيء فإنهيدل على حسن إدراكه للواجب الشرعي المنوط به في مثل هذه المحنة ، ناهيك عن حسن أخلاقه وكرمه وبذله للأموال ، وحسن تجاوبه مع تلك الفاجعة التي ضربت البلاد ، وتفانيه في مواصلة عمله المحمود بالرغم من عجز كبار الأمراء عن مواصلة جهودهم في هذا الشأن ، حتىأفنى ابن غراب جل أمواله فى مواجهة آثار الوباء والمجاعة ، ومات ولم يترك لأهله كثير مال ، بل كان عليه من الديون ما يفوق الحصر (٢).

وأما عن الجوانب الاجتماعية الأخرى فى شخصية ابن غرابفقد

---

(١) المقريزي : السلوك ٦ / ١٠٣ ، المواعظ ٤ / ٢٩١ ، ابن قاضي شهبة : تاريخه ٤ / ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ١٣٧، ابن تغري بردي : المنهل ١ / ١١٢ ،السخاوي : الضوء ١ / ٦٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور الجزء الأول القسم الثاني ص ٦٨٥ ، ٦٨٦ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣١٠ ، السخاوي : الضوء ١ / ٦٧ .

كانت ماثلة للعيان ،فقد كان مبسوط اليدين بالعطاء ، باذلاً للمعروف والصدقات ، صاحب مكارم وأفضال وهمة عالية لم يسمع بمثلها في عصره، مع تدين وتعفف عن الموبقات ، كما كان محبوباً من العامة لما قام به فى أيام المحنةوالوباء من جهد مشكور ، كل هذا مع عدله وعدم ظلمه بالنسبة لغيره من أبناء جنسه من المباشرين والكتاب ، ومنذ أن ولى وظائفه وحتى موته كان مُكرِماًلمن يدخل عليه كبيراً كان أم صغيراً ، فما دخل عليه مملوك فى حاجة إلا وأحسن ضيافته ، ثم يشرع فى قضاء حاجته (١).

ولقد انعكست هذه السيرة المحمودة لابن غراب فى ردة فعل الناس حياله بعد موته ، فكانت جنازته من العجائب التي وقعت بمصر ؛ لكثرة من شهدها من الأمراء والأعيان والعامة ناهيك عن السلطان ، حتى إن الناس استأجروا الحوانيت والسقف لمشاهدتها، وشيعه جمع كبير وهم مشاة لمسافة طويلة من داره ببركة الفيل حتى صُلي عليه تحت القلعة إلى أن وورى الثرى ، وكثر تأسفهم وبكاؤهم علي فقده ، كما انطلقت ألسنتهم بالدعاء له والترحم عليه، وتفاءل الناس كثيراً لحسن خاتمته بغير الحسام، ومبيته في قبره ليلة الجمعة العشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ / العاشر من مارس سنة ١٤٠٦ م وهوابن ثماني والعشرين سنة(٢).

---

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٨ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٥ / ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ابن تغري بردي : النجوم ١٣ / ١٥٦ ، السخاوي : الضوء ١ / ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) المقريزي : درر العقود ٩٨/١، المواعظ ٢٩١/٤، ابن حجر : إنباء الغمر =

ولم يذكر المؤرخون من مساوىء لابن غراب غير غدره بسيده جمال الدين محمود ، ومحاققته أمام السلطان برقوق ، وجوره على بعض أمواله ، وكذلك حبه للرئاسة تلك التي دفعته أحياناً إلى عدم التواني عن النيل من خصومه ونكبتهم ، كما حدث مع ابن الطبلاوي ويلبغا السالمي ،فـ" كم ناطح كبشاً ، وثل عرشاً " بيد أنه لم يسفك دماً طيلة حياته ، وكفى بها من مزية لمن باشر مثل وظائفه ، وخاض فى شؤون الحكم والسياسة مثل خوضه ، فلله دره من رجل [١]قال عنه المقريزي[٢] في ختام ترجمته :

فتى كان فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

و هذا الدور الاجتماعي المحمود لابن غراب قد يراه البعض متناقضاً مع سلوكه السياسي ودهائه وكثرة خوضه في الصراعات بين الأمراء ، بيد أن هذا الجنوح لعمل الخير والتباري فيه أمام الناس كان سمة عامة لهذا لعصر ، فكان المسرفون على أنفسهم ، والمنخرطون في الحوادث السياسية بما لها وما عليها ، يجتهدون أحياناً لتبيض سيرتهم ، ومحو بعض ما اقترفت يداهم ،إما ببناء المنشآت الخيرية كالمساجد والمدارس وغيرهما ، أو المشاركة في التخفيف من بعض النوائب التي تضرب البلاد

---

٥ /٣٠٩ = = ابن الصيرفي : نزهة النفوس ٢/٢٢١،السخاوي : الضوء ١ / ٦٥- ٦٧ .

(١) المقريزي : درر العقود ١ / ٩٨ – ١٠٠، المواعظ ٤ / ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ابن تغري بردي : ١٣النجوم الزاهرة / ١٥٧ .

(٢) درر العقود ١ / ١٠٠.

في عصرهم ، آملين من هذا أو ذاك طي هذه الصحائف يوم لا ينفع مال أو بنون ، أو نيل الثناء من معاصريهم ، وأحسب أن ابن غراب كان من الصنف الأول من هؤلاء النفر ، و ما قام بهذا الدور الاجتماعي المحمود إلا لتحسُن آخرته .

وكيفما كان الأمر فقد طويت صفحة ذلك الرجل وسيرته وأعماله ، وانتقل من التاريخ وأحداثه إلى كتبه وأبحاثه ، ليكون فى قصصه عبرة لأولي الألباب ، ودرساً لمنولى من أمر الناس شيئاً ، أو عاصر محناً ونوائب حلت بقومه ، فإن أحسن صنعاً وقدم خيراً ، فذلك جزاؤه ومآله فى حياته ، وحكم الناس والتاريخ عليه بعد مماته ، وإن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

خاتمة

بعد هذا التناول لموضوع " سعد الدين ابن غراب ودوره السياسي والاجتماعي فى الدولة المملوكية ٧٨٠ – ٨٠٨ هـ / ١٣٧٨ – ١٤٠٦م " ،نستطيع أن نلخص أهم نتائج هذا البحث فيما يلى :

أولاً : انفرد ابن غراب عن سابقيه ولاحقيه من المباشرين فى الدولة المملوكية بتقلده أربعاً من كبريات الوظائف الديوانية ذات الأهمية القصوى في السلطنة وهى نظري الخاص والجيش والوزارة وكتابة السر ، والتى يُعبر عنها بأنها هى الدولة ذاتها ،كما كان ثاني اثنين يجمع بينالوظائف الثلاث الأول فى تاريخ الدولة المملوكية حتى عصر ابن تغري بردي ، ناهيك عن حنكته ودهائه التي مكنته من الجمع بينالوظائفالديوانية والعسكرية ذات الأثر الكبيرفي الدولة، وعلى رأسها الأستادارية والإشارة ثم الإمرة ، وهو أمر فريد ، قلما تحقق لنظرائه المباشرين .

ثانياً : تمتع ابن غراب بقدر كبير من الدهاء والحنكة السياسية ، مكنته من تجاوز عقبات كؤود كادت أن تطيح به من مناصبه غير مرة ، وتقضي على حياته ، فكان يسترد مكانته ووظائفه سريعاً بوسائل شتى ، ويعود سريعاً للمشاركة فى شؤون الدولة السياسية ، مما يؤكد جدارته بما وصل إليه ، وهو أمر لا يتوفر إلا لمن قضى عقوداً طويلة من عمره فى مثل أعماله بالرغم من وفاته في سن الثامنة والعشرين .

ثالثاً : ظهرت براعة ابن غراب السياسية وقدرته على المناورة غير مرة ، فقد شارك في الصراعات المملوكية بين الأمراء لمؤازارةحليفه يشبك ضد مناوئيه ، وتجلت حنكته ودهائه في آخر مشاركاته السياسية ، حيث

نجح نجاحاً باهراً في استعادة مكانته هو وحلفاؤه فى الدولة ، والقضاء على نفوذ خصومه من الأمراء ، وذلك بعد ترتيبه لاختفاءالناصر فرج من على مسرح الأحداث ، ثم إعادته إلى سدة الحكم بعد قليل ، الأمر الذى جعله يمتن بذلك على جميع الأمراء مؤيدين ومعارضين ، ناهيك عن السلطان الذى منحه سلطات واسعة في إدارة شؤون البلاد، توازي سلطاته هو شخصياً إن لم تزد عليها، وذلك اعترافاً بفضله عليه .

رابعاً :كان لابن غراب دور اجتماعي محمود سطره له المؤرخون قلما وقع من نظرائه ، والذي تمثل فى حسن إدراكة لما حل بالبلاد من محنة كبرى بسبب الوباء والمجاعة ، وسرعة تعاطيه مع العامة في مواجهة آثارهما بمواراة الموتى الثرى، ليس هذا فحسب بل فاق فى دورهمعاصريه من الأمراء الذين عجزوا عن مواصلة جهودهم لطول أمد المحنة ،فبذل الرجل جُلّ أمواله فى هذا الأمر حتى صار يضرب بموقفه المثل ، وحفظ العامة له حسن صنيعه ، فشادوا به فى حياته ، وخرجوا ألوفاً فى مشهد مهيب لتشييع جثمانه ، كما انطلقت ألسنتهم بالدعاء له ، والترحم عليه ، لتكون فى سيرته عظة وعبرة لأولي الألباب .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفي ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م .

١- بدائع الزهور في وقائع الدهور .

الجزء الأول القسم الثاني ، حققه وكتب له المقدمة والفهارس د/ محمد مصطفى زيادة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م .

٢- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي .

سبعة أجزاء ، حققه د/ محمد محمد أمين ود/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، ود/ نبيل محمد عبد العزيز ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤- ١٩٩٠م.

٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

١٦ جزء ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر ، د ط ، ١٩٣٠ - ١٩٧٢ .

ابن حجر : أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م .

٤ – إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ .

تسعة أجزاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٥ – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

ستة أجزاء ، تحقيق / محمد عبد المعيد خان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ط ٢ ، ١٩٧٢م .

٦–ذيل الدرر الكامنة .

تحقيق د / عدنان درويش ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م

السحماوي : شمس الدين محمد ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م .

٧– الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم .المعروف باسم المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي .

جزءان ، دراسة وتحقيق د/ أشرف محمد أنس ، مراجعة د/ حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، د ط ، ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م.

السخاوي : محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م .

٨– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .

١٢جزء ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٩ – وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام .

أربعة أجزاء ، تحقيق د/ بشار عواد معروف ، وعصام فارس ، ود/ أحمد الخطيمي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ.

ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل ت٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م .

١٠– زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، باريس ، دط ، ١٨٩٣ م ،

ابن شاهين الملطي : عبد الباسط بن خليل ت٩٢٠هـ / ١٥١٤م

١١– نيل الأمل في ذيل الدول .

تسعة أجزاء ، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية، بيروت ، صيدا ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .

الصفدي : خليل بن أيبك ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م .

١٢– أعيان العصر وأعوان النصر .

خمسة أجزاء ، تحقيق الدكتور / على أبو زيد ، والدكتور / نبيل أبو عشمة ، والدكتور / محمد موعد ، و الدكنور / محمود سالم محمد ، قدم له / مازن عبد القادر المبارك ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م

ابن الصيرفي : علي بن داود الجوهري ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م .

١٣- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان .

الجزء الثاني، تحقيقوتعليقد/ حسنحبشي .، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٧١م .

ابن قاضي شهبة : تقي الدين أبو بكر أحمد ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م .

١٤- تاريخ ابن قاضي شهبة .

أربعة أجزاء ، للفترة من ٧٤١هـ إلى ٨٠٨هـ ، تحقيق / عدنان درويش ،المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، د ط ، ١٩٩٤م – ١٩٩٧م .

القلقشندي : أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م .

١٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا .

١٥جزء ، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه / محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

المقريزي : أحمد بن علي بن على عبد القادر ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

١٦- درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة .

أربعة أجزاء ، تحقيق د / محمود الجليلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

١٧- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

ثمانية أجزاء ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

١٨ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

أربعة أجزاء ، وضع حواشيه / خليل المنصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .

١٩– معجم البلدان .

سبعة أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

ثانياً : المراجـع

الباشا : حسن.

٢٠– الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار .

الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د ط ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

البقلي : محمد قنديل .

٢١– التعريف بمصطلحات صبح الأعشى .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٨٣م .

الخطيب : مصطفى عبد الكريم .

٢٢ – معجم المصطلحات والألقاب التاريخية .

مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

دهمان : محمد أحمد .

٢٣– معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي .

دار الفكر ، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

رمزي : محمد

٢٤– القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة١٩٤٥م

قسمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، ١٩٩٤م .

عاشور : سعيد عبد الفتاح.

٢٥– العصر المماليكي في مصر والشام

مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٤م .

ويستنفلد :

٢٦– جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها .

ترجمة د/ عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١ ، ١٩٨٠م .

محتويات البحث

الموضـــــــــوع
مقدمـة .
المبحث الأول : نشأة ابن غرا ب ووظائفه
المبحث الثانى:الدور السياسيلابن غراب في الدولة المملوكية
المبحثالثالث:الدور الاجتماعي لابن غراب في الدولة المملوكية
خاتمـــــــــة .
ثبت المصادر والمراجع .
محتويات البحث